الدكتور

حسين يوسف دويدار

المسلمون المدجنون في الأندلس

المسلمون المنصرون فى الأندلس

تاليف

الدكتور

حسين يوسف دويدار

أستاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة

كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

مطبعة الحسين الاسلامية

٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر

تليفون : ٥١٠٦٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يكن الوجـود الإسلامى فى شـبه جزيرة ايبيريا (الاندلس)(١) مجرد موجـة عابرة طافت بهـا ثم انحسرت عنها سريعا ، وإنمـا كان حركة قـوية فعالة استطاعت تكوين دولة امتدت ــ عبر فترات تراوحت بين القـوة والضعف ــ نحـو ثمانية قرون من الزمان ، وادت إلى قيـام حضارة زاخرة نهلت منها أوربا فى العصـور الوسطى ، ولا زالت بعض آثارها وشواهدها باقيـة إلى يومنا هـذا تشهد بمـا كانت عليـه من تقـدم وازدهـار .

---

(١) الأندلس : يذهب الكثيرون إلى ان هـذه التسمية مشتقة من كلمـة الوندال ويعتقد بأنها تحوير لكلمة Vandalusia (فنداليسيا) نسبة إلى غزاة هـذه البـلاد من قبـائل الـوندال Vandals الجرمانية البرابرة ، ولمـا غزاها القوط الغربيون ــ وهم من جنس القبائل الجرمانية ــ فى اوائل القرن السادس الميلادى طردوا منهـا الوندال ، وظـل هـذا الآسم سائدا حتى كان الفتح الإسلامى لهـا فعرب . وكانت الأندلس تعرف قبـل ذلك ايضا باسم ابارية (أيبيريا) التى تضم فى الوقت الحالى دولتى اسبانيا والبرتغال ، وذلك نسبة إلى الأيبيريين الذين كانوا من أقـدم سكان هـذه البلاد .

. . . .

وبعد استيلاء الرومان عليها فى أوائل القرن الثانى الميلادى (سنة ١٣٣ م) أطلقوا عليها اسم أسبانا (شاطىء الأرانب) وهو اسم فينيقى أطلقه الفينيقيون على الشاطىء الجنوبى لهذه البلاد عندما نزلوا فيه نظرا لكثرة الأرانب التى شاهدوها فيه ، ثم عممه الرومان على كل البلاد ، ثم لما خضعت هذه البلاد للوندال نسبت إليهم حتى تم تعريب الاسم إلى الأندلس بعد الفتح الإسلامى .

(انظر : د. أحمد هيكل : الأدب الاندلسى ص ٣ — ٦ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص ٩ — ١٠ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الاندلسى ص ٣٧) ، وقد ذكر ابن الأثير وابن خلدون والمقرى : ان أول من سكن هذه البلاد قوم عرفوا باسم الاندلش بالشين المعجمة فسمى البلد بهم ثم عرب بعد ذلك بسين مهملة ، وأن النصارى يسمونها اشبانية باسم رجل صلب فيها يسمى اشبانس ، أو باسم ملك فيها كان يسمى اشبان ابن طيطس وقيل : بل سميت باسم أندلس بن يافث بن نوح وكان اول من سكنها وعمرها . وذكر الحميرى : ان اسم الاندلس فى اللغة اليونانية اشبانيا ، وقيل اسمها فى القديم ابارية ثم سميت باطقة ، ثم اشبانية من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه اشبان ابن طيطش ، أو نسبة لرجل صلب فيها يسمى اشبانس إلى غير ذلك .

(انظر : الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، العبر ج ٢ ص ٢٣٥ نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ ، الروض المعطار ص ٣٢ — ٣٤).

غير أن كلمة الأندلس فى المدلول الجغرافى الحديث تطلق على الجزء الجنوبى فقط من أسبانيا ، ويشمل الولاية الجنوبية من أسبانيا الواقعة بين الوادى الكبير والبحر المتوسط من ناحية وبين ولاية مرسية واشبيلية من ناحية أخرى ، وتحتوى على عدة مدن وقرى لا زالت تحمل اسماءها العربية إلى الآن — بعد التحريف — مثل مالقه المرية — غرناطة — قرطبة الخ . ويطلق عليها الآن اسم اندلوسيا Andalucia او الاندلس الصغرى ، وما تزال هذه الولاية تحتل فى التقسيم الإدارى لأسبانيا الحالية نفس هذه المنطقة (انظر ابو عبيدة الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية ص ٧ — ٨ هامش ٢ ، عنان : اندلسيات ص ١٥٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٩) ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٧) .

هذا بينما ذهب بعض المستشرقين إلى ان اسم الأندلس لم يأت من كلمة الوندال ، وإنما اشتق من كلمة اطلانطيكوس (الجزيرة المفقودة) ، وكل الأساطير المنسوبة إلى هذه الجزيرة فى المصادر اليونانية تذهب إلى انها كانت تقع فى منطقة قريبة من جبل طارق ، ولكن هذا الراى بعيد جدا ولا يستند إلى حقائق تاريخية أو جغرافية مما يجعله أشبه بالأساطير التى نسبت لهذه الجزيرة المفقودة . (انظر : أوراق أندلسية ص ١٥٩) .

وبغض النظر عن اشتقاق كلمة الأندلس فإن هذا الاسم يحمل معنى ثقافيا وحضاريا وتاريخيا أكثر من كونه يرتبط بمفهوم او اشتقاق لغوى . فهو يطلق على كل المناطق التى امتد إليها تأثير

وإذا كانت الأندلس ـ بالمدلول الجغرافي ـ تتراءى لنا اليوم من خلال حجب التاريخ وكأنها الفردوس المفقود . فإنها بالمدلول الحضاري نسيج حي في جسم العالم الإسلامي بما أمدته من تراث عظيم . ثم إنها من ناحية أخرى كانت ولا تزال معبرا وحلقة اتصال بين الشرق الإسلامي ، والغرب المسيحي مما جعلها منارا عظيما ، ومركز إشعاع حضاري انطلقت منه أشعة العلم والثقافة والحضارة الإسلامية إلى أوربا في العصور المظلمة .

ولا يمكننا أن نتصور التأثير الإسلامي في أسبانيا إبان العصور الوسطى إلا بمعرفة الدور الذي قامت به الجماعات الإسلامية في البيئات المسيحية ، فقد مثلت صورة حية للإسلام ودولته بنظمها وتقاليدها وعاداتها وآدابها ، وكان تاريخ هذه الجماعات يمثل تاريخ الإسلام الذي ذهب سلطانه السياسي والعسكري وبقي أثره الروحي في النفوس لم يمحه تطاول القرون ولا تعاقب الأجيال .

ومن هذه الجماعات الإسلامية (المدجنون) Losmudejares الذين أخذوا في الظهور عندما اشتدت حركة الغزو المسيحي للمسلمين في الأندلس ـ أو حركة الاسترادا أو الاسترجاع أو الاستعادة كما يسميها المسيحيون Lareconquista (الريكونكستا) ـ وبدأ نفوذ المسلمين

=

الإسلام في شبه جزيرة ايبيريا سواء في الجنوب أو الشمال الشرقي أو الغرب ، أي سائر شبه الجزيرة ما عدا ركنها الشمالي الغربي الذي قامت فيه مملكة غاليسيا أو جليقية أول مملكة مسيحية في اسبانيا قاومت المسلمين .

فى التقلص من مكان إلى آخر حتى سقط آخر معقل لهم فى غرناطة سنة ١٤٩٢ م فكثرت منذ ذلك الحين جماعات المسلمين الذين عاشوا تحت سيطرة الاسبان المسيحيين(٢) .

حركة الاسترداد :

ولقد بدات هذه الحركة فى الواقع مع سقوط الخلافة الأموية وقيام دول الطوائف فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ويعتبر المؤرخون الاسبان معركة كوفا دونجا سنة ٧١٨ م التى أوقف فيها الزعيم الأشتورى (بلايو) — الذى التفت حوله الجماعات المسيحية فى المناطق الشمالية الغربية التى لم يفتحها المسلمون — تقدم جيوش المسلمين هى البداية الحقيقية لحركة الاسترداد .

ولو أن المسلمين قد واصلوا زحفهم على الشمال الغربى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وسيطروا عليها كلها ، وحطموا آخر بقايا النفوذ المسيحى فى منطقة الجبال الشمالية ، لكان قد تغير وجه اسبانيا تغيرا تاما ، ولبقيت فى عداد دول الإسلام إلى اليوم ، ولكنهم اكتفوا

---

(٢) كان يطلق على هؤلاء المسلمين اسم (المعاهدون ، أو المعاقدون أو الداخلة) . إلا أن اللفظ الذى شاع إطلاقه عليهم هو المدجنون من دجن بالمكان إذا أقام فيه . وقد شاع هذا الاسم منذ ازداد عدد المسلمين الذين اضطروا للدخول فى طاعة الأسبان بعد الاستيلاء على قواعدهم وبلادهم منذ أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) (انظر : د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٥) عنان : نهاية الأندلس ص ٥٦ ، كناسة الدكان ص ١٧ ، مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ٢ ص ٧ ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ١٥ — ١٦ ، د. صلاح فضل : ملحمة المغازى الموريسكية ص ١٢ — ١٣) .

بالمناطق الشاسعة الغنية التى فتحوها وخضعت لهم فأغرتهم بالاستقرار ، وعــدم التقــدم نحو المناطق الجبلية الوعرة شــديدة البرودة التى لجأت إليها الجماعات المسيحية المناهضة للمسلمين ، والتى استطاعت فى غفلة من المسلمين — نتيجة انشغالهم بالتنافس على الملك والرئاسة والتنازع فيما بينهم — ان تكون اول مملكة مسيحية فى القرن الثامن الميلادي وهى مملكة جليقية التى كانت أساس القــوى التى وقفت ضــد المسلمين ، ثم تكونت مملكة ثانية إلى الشرق منها وهى مملكة (نافار) او نباره فى القرن التاســع الميلادى ، ثم ما لبثت أن تكونت مملكتان أخريان فى القرن العاشر وها : قشتالة وارغون او اراجون وبذلك أصبحت هــذه الممالك المسيحية تشكل قوسا حــول المسلمين فى الأندلس من الشمال والغرب بالإضــافة إلى جيوش الفرنجة التى كانت تواجههم من الشرق ممــا جعلهم بين فكى انكماشة كما يقــال . وهكذا اصبحت قــوى الأعــداء تحيط بالمسلمين من كل جانب ، وتنتهز كل فرصــة لتزحف عليهم وخاصة عندما يدب الشقاق والنزاع من اجــل الملك ، وكانت هــذه الممــالك المسيحية تتناسى سريعا ما يحــدث بينها من شقاق ونزاع احيــانا فى سبيل هــدفها المشترك وهــو القضاء على دولة المسلمين فى الأندلس(٣) .

وقــد عاق الزعماء المسيحين فى أول الأمر المنازعات التى كانت قائمة بينهم ، إلا ان حركة الاسترداد سرعان ما وجــدت اعظم مشجع لها فى ذلك الاتحاد الذى تم بين مملكتى قشتالة وليــون سنة ١٢٣٠ م بحيث لم يكد ينتصف القرن الثالث عشر الميلادى حتى كانت هــذه الحركة قــد نجحت

---

(٣) د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٧٩ — ٨٠ ، عادل بشتاوى : الاندلسيون المواركة ص ٤٠ .

فى الاستيلاء على معظم قواعد ومدن الأندلس باستثناء الأندلس الصغرى (غرناطة) التى استطاعت العيش والصمود مدة قرنين ونصف من الزمان قبل أن تسقط فى يد الأسبان سنة ١٤٩٢ م(٤) .

وبعد سقوط قواعد ومدن المسلمين فى الأندلس واحدة إثر الأخرى فى يد الاسبان أصبح الكثير من المسلمين رعايا للمسيحيين — بعد أن كانوا حكاما لهم — عليهم دفع الجزية والضرائب والخضوع للحكم الأسبانى المسيحى ، ورفض معظمهم ذلك وأخذوا يهاجرون إلى بلاد المغرب وإلى مملكة غرناطة آخر معقل للمسلمين فى الأندلس قبل سقوطها مفضلين ذلك على الإقامة والخضوع لسيطرة الأسبان المسيحين ، وكان منهم أسرات اندلسية عريقة لجأت إلى المناطق الجنوبية والمدن الساحلية وبلاد المغرب العربى .

اما المسلمون الذين بقوا فى اماكنهم التى سيطر عليها الأسبان ، فقد كان ذلك بسبب ضعفهم أو عدم قدرتهم على الرحيل أو الهجرة ، أو بسبب ما كان لهم من ممتلكات واراض فضلوا الإقامة بجانبها ، أو بسبب بعض الإغراءات التى تعرضوا لها من النبلاء والأشراف للخدمة فى ضياعهم وقصورهم ، وهؤلاء هم الذين اطلق عليهم اسم المدجنين Losmadejares . وقد ظلوا يحتفظون بدينهم الإسلامى وثقافتهم العربية الإسلامية ويعيشون فى المجتمع المسيحى فى أحياء خصصت

---

(٤) سقطت طليطلة فى يد الأسبان سنة ١٠٨٥ م ، وطرويل سنة ١١٧١ م ، وماردة سنة ١٢٣٠ م ، وقرطبة سنة ١٢٣٦م ، ولنسية سنة ١٢٣٨ م ، ودانية ومرسية سنة ١٢٤٣ م — وجيان سنة ١٢٤٦ م ، واشبيلية سنة ١٢٤٨ م .

لهم فى اكثر من مائة مدينة كمواطنين من الدرجــة الثالثة حتى تعرضــوا بعــد ذلك وبداية من اوائل القرن السادس عشر الميلادى سنة ١٥٠٢ م للاضطهاد والتنصير فتنصر منهم من تنصر وحافظ بعضهم على دينــه سرا فاظهر النصرانية وابطن الإسلام ومارس شعائره سرا وذهب فى ذلك مذهب التقية مستدلا بقوله تعالى « **إلا من اكره وقلبــه مطمئن بالإيمــان ولكن شرح بالكفر صــدرا** »(٥) .

وبذلك ظهر ما يسمى فى التــاريخ الاندلسى او الاســبانى بالمشكلة الموريسكية التى شغلت ملوك اسبانيا نحــو قرن من الزمان ، واصــبح هؤلاء المسلمون المدجنون الذين تعرضوا للتنصير يطلق عليهم اسم الموريسك او الموريسكيون او الموراكة(٦) . وقــد كان هنــاك من العلمــاء المسلمين

---

(٥) د. لطفى عبد البديع : الإســلام فى اســبانيا ص ١٧٤ ، عــادل بشتاوى : الاندلسيون المواركة ص ١٣ ، ص ٢٤٩ . عنان : نهــاية الاندلس ص ٥٧ ، ص ٦٢ ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٢٧ .

(٦) كلمــة موريسك تعريف لكلمة Moriscos القشتالية (الاسبانية) وهى تصغير لكلمــة مورو Moros وتعنى المســلمين الجدد او الاصاغر ، وهى كلمــة تشعر بالتحقير وضعف الشأن — وللأسف فإن هــذه الكلمة لا زالت تطلق على المسلمين فى الفلبين ويرددها الكثيرون دون تدبر حيث يطلقــون على جبهــة تحــرير المســلمين فى جنوب الفلبين اسم جبهة تحرير مورو — وقــد استخدم البعض بدلا منهــا اسم العرب المتنصرين ، كما عرفهــا البعض بانهــا تعنى المغاربة الســود (البربر) الذين بقــوا فى شــبه جــزيرة ايبيريا وتم تنصيرهم وصهرهم فى بوتقة المجتمع المسيحى فيما بعــد ، كما

=

وخاصة فى المغرب من لم يرض ببقاء المسلمين واصدر فتوى تحرم عليهم البقاء ومنهم ابو العباس احمد بن يحيى التلمسانى الونشريشى احد فقهاء المغرب (ت ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م) الذى عاصر سقوط غرناطة وكتب فى ذلك رسالة عنوانها (اسنى المتاجر فى بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر)(٧) .

اختار معظم المسلمون الأندلسيون خيار الهجرة لأنهم راوا انه السبيل الوحيد للنجاة من الاضطهاد والتنصير القسرى ، ومن سيوف الأسبان المتعصبين وخاصة بعد سقوط غرناطة . وقدر (ستانلى لين بول) عدد المسلمين الذين انتقلوا إلى العدوة (بلاد المغرب) بحوالى ثلاثة ملايين شخص منذ سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م وحتى نفى آخر الأندلسيين سنة ١٦١٥ م(٨) .

=

قصد بها البعض : العرب المسلمون الذين بقوا فى قشتالة وغرناطة بصفة خاصة بعد صدور مرسوم إيزابيلا سنة ١٥٠٢ م وكذلك الأندلسيون الذين بقوا فى بلنسية ونصروا بالقوة سنة ١٥٢١ م (انظر : عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٦ ، د. على مظهر : محاكم التفتيش ص ٢١ ، محمد عنان : نهاية الأندلس ص ٣٢٢ ، د. احمد شلبى : التاريخ الإسلامى جـ ٤ ص ١٠٦ ، مجلة دراسات ص ٧٨ هامش ٣ ، مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ١ ص ١٨ ، د. صلاح فضل : ملحمة المغازى الموريسكية ص ١٣–١٥ .

(٧) نشرها د. حسين مؤنس فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد المجلد الخامس ١٩٥٧ م .

(٨) عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ١٩٠ .

أما الباقون فتدجنوا فى المدن والقواعد الإسلامية التى سقطت تباعا كطليطلة وطرويل وما ردة وقرطبة وبلنسية ودانية ومرسية وجيان واشبيلية ثم فى غرناطة بعد استسلامها إلى أن خيروا بين التنصر أو الرحيل ، بموجب مرسوم ايزابيلا الذى صدر فى فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ م ، وأعطوا مهلة شهور ثلاثة رحل فى خلالها إلى بلاد المغرب نحو ثلاثمائة الف ، وأما الذين لم يرحلوا فقد اعتبروا متنصرين بموجب المرسوم ، واطلق عليهم اسم النصارى الجدد أو الموريسكين(٩) .

أسباب الإبقاء على المدجنين فى اسبانيا :

ولكن ما هى الأسباب التى جعلت الاسبان يسمحون للمدجنين بالبقاء بالرغم من أن حركة الاسترداد المسيحى — كما يطلق عليها — لم تكن فقط لاسترداد سلطانهم واسقاط الكيان السياسى لدولة المسلمين فى الأندلس مع السماح للمسلمين بالبقاء كعناصر ظلت تعيش فى البلاد نحو ثمانية قرون حتى أصبحت من أهلها ، وإنما كانت تهدف فى النهاية إلى إزالة وجود المسلمين نهائيا من الاندلس أفرادا وجماعات ومحاربة عقيدتهم الإسلامية ولغتهم العربية وما يتصل بهم بشتى الطرق والوسائل حتى لنستطيع أن نطلق عليها حركة الإبادة والإفناء(١٠) .

---

(٩) الأندلسيون المواركة ص ١٥ ، ١٦ ، ١٩ نهاية الأندلس ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(١٠) شبيه بهذا ما يفعله الصرب والكروات بالمسلمين فى البوسنة والهرسك بمساعدة الغرب المسيحى المتعصب ، وتواطؤ المجتمع

نستطيع أن نقول إنه كان لبقاء المدجنين في أسبانيا فترة تصل إلى نحو ثلاثة قرون عدة أسباب منها :

١ - أنه كان لا يزال هناك كيان سياسي قوى للمسلمين في أسبانيا ممثلا في مملكة غرناطة مما جعل الاسبان وحلفاءهم من الدول المسيحية الأوربية يتحاشون ولو إلى حين عملا صريحا كالطرد أو الإبعاد أن لم يكن التنصير يثيرون به المتاعب والقلاقل ضدهم ، أو الخوف من عمليات الانتقام التي قد يقوم بها المسلمون تجاه النصارى في غرناطة أو في بلاد المغرب ومصر وتركيا .

٢ - أن طرد المدجنين من اماكنهم التي سيطر عليها الأسبان وإجلاءهم قد يجعلهم يشكلون عنصرا جديدا يواجههم ويزيد من نشاطه ضدهم ، ولذلك رأى الأسبان أن من الأفضل إبقاءهم إلى حين في أماكنهم

=

الدولي والمؤسسات الدولية ، وتقاعس المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي عن نصرتهم ، كما تقاعست الدول الإسلامية عن مناصرة المسلمين في الأندلس مناصرة جدية آنذاك . والتاريخ يعيد نفسه في صورة جديدة ، وهي حروب صليبية جديدة تهدف إلى طرد المسلمين نهائيا من أوربا ، والقضاء على الإسلام فيها .

وقد كانت السلطات الأسبانية تحصل باسم الكنيسة ضريبة للجهاد ضد المسلمين تسمى Crazoda كروزادا وكانت حصيلتها تقدر بحوالي ٩١٢ الف دوقة سنويا (الأندلسيون المواركة ص ١٧٧) .

حتى تصبح الفرصة مواتية لذلك فيما بعد تبعا لسياسة التدرج أو الخطوة خطوة . وقد كان حيث خيروا بعد ذلك وبعد سقوط غرناطة وزوال سلطان المسلمين بين التنصر أو الرحيل .

٣ ــ رأى الاسبان أن بقاء المدجنين فى بعض المناطق سوف ينتهى بهم إلى الذوبان والانصهار فى بوتقة المجتمع المسيحى بطول الزمن وباستخدام شتى الوسائل . ولذلك فقد تحول هؤلاء المدجنون بعد أجيال إلى (موريسكيين) يستعملون اللغة القشتالية (الأسبانية) مكتوبة بحروف عربية بدلا من اللغة العربية التى حرمت عليهم وهى لغة الخميادو Aljamiads أى (الأعجمية) .

كما وجد نوع من العلاقة والمصاهرة بين بعض المدجنين والأسبان فى المناطق التى أقاموا بها ، وقد أدى هذا إلى انحلال عصبيتهم الإسلامية والعربية(١١) .

٤ ــ رأى الأسبان أن وجود هؤلاء المدجنين فى المناطق التى كانوا يقيمون بها أمر ضرورى للغاية حيث كان معظمهن يشتغل بكثير من المهن والأعمال التى يأنف منها الأسبان ولا يعملون بها ــ نظرا لأنهم كانوا يعتبرون انفسهم رجال حرب فقط ــ كالزراعة والحرف الصناعية والمعمارية والتجارة والخدمة ، وتمتعوا بالكثير من القدرات والخبرات والمهارات فى ذلك ، وكان اخراجهم وطردهم سيحدث فجوة هائلة وخسارة فادحة ستؤدى إلى توقف دولاب الحياة الاقتصادية وإقفارها(١٢) .

---

(١١) عنان : نهاية الأندلس ص ١٩٩ ، عصر المرابطين والموحدين ج ١ ص ٣٦٦ .

(١٢) د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٥٣٣ ــ ٥٣٤ ، عنان : نهاية الأندلس ص ٦٢ ــ ٦٣ ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠ .

ولذلك فانه عندما همت السلطات الاسبانية يوما باخراج المدجنين من أماكنهم قامت جماعات من الأسبان وخاصة الأشراف والنبلاء بمعارضة ذلك طالبة العدول عن ذلك ، ليس من باب الرفق أو العطف وإنما حرصا على مصالحهم وأعمالهم . وقد ادى ذلك إلى الموافقة على عدم إخراجهم شريطة تركهم دينهم ودخولهم فى المسيحية(١٣) .

وعندما سقطت قرطبة فى يد الأسبان سنة ١٢٣٦ م لم تجد السلطات الحاكمة سوى المدجنين تعهد إليهم بالأعمال المعمارية والفنية فكان البناءون والنجارون وغيرهم من أهل الحرف الأخرى يعملون فى الكاتدرائية الكبرى مرتين فى كل عام .

وتقديرا لخدماتهم فقد أصدر حاكم المدينة الفونسو الحكيم سنة ١٢٨٠ م — رسالة نوه فيها بأعمالهم وتعهد فيها بألا يتعرض لهم احد بأذى(١٤) .

سياسة الأسبان تجاه المدجنين :

بالرغم من إبقاء الأسبان على المدجنين فى أماكنهم للأسباب التى سبقت إلا انهم تعرضوا لضغوط كثيرة ، وعاشوا فى أحوال قاسية تعرضوا فيها لاضطهادات شبه دائمة ، فقد اقاموا فى أحياء خصصت لهم فى أكثر

---

(١٣) عنان : نهاية الأندلس ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(١٤) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٧ ، د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ١١٠ .

من مائة مدينة كمواطنين من الدرجة الثالثة فى بلاد كانوا يحكمونها بالأمس(١٥) .

ووقعت على عاتق الكثيرين منهم الأعمال الشاقة فى الزراعة والصناعات والحرف والخدمة لصالح النبلاء والكنيسة بأجور زهيدة وربما بلا مقابل فى بعض الأحيان .

وعوملوا معاملة سيئة فى كثير من الأحيان ، فقد الزمهم الأسبان بلباس خاص أو بشارة فى لباسهم تميزهم عن غيرهم مثلهم مثل اليهود وكانت على شكل دائرة صفراء قرب الصدر ، كما جعلوا لهم قوانين خاصة بهم منها :

انه لا يجوز لمسلم (مدجن) أن يستخدم مسيحيا ومن خالف ذلك تصادر املاكه ، وليس لواحد منهم أن يقبل دعوة مسيحى أو يدخل بيته إلا إذا كان طبيبا ، ومن فر منهم إلى ديار المسلمين فإنه يعتبر اسير حرب وتصادر جميع أملاكه ، ويكون ملكا لمن يقبض عليه من الأسبان ، ومن كان له دين على مسيحى فأنكره فلا شىء له إلا إذا كان مسجلا فى محكمة اسبانية ، وحرم عليهم رجالا ونساء لبس الحلل الحريرية او الموشاة والتزين بالذهب والفضة ، كما حرم عليهم ركوب الخيل وحمل

---

(١٥) ولا يزال فى مدينة قلعة ايوب فى اسبانيا إلى اليوم حى يعرف بحى الموارکة Moreria لا يشعر اهل المدينة برغبة فى إرشاد السائح إليه ، وفيه مجموعة كبيرة من المساكن المبنية فى الكهوف كانت بعض المناطق التى عاش فيها الأندلسيون الموريسكيون وهو كغيره من الأحياء المشابهة يقدم لنا فكرة بسيطة عن نوع الحياة التى عاشوها . (عادل بشتاوى : الأندلسيون الموارکة ص ٢٩٦) .

السلاح حتى السكين الصغير ، أو اظهــار أى شىء من شــعائر الدين الإســلامى بالقــول أو الفعــل ، ومن يعارض منهم فى تنصير أو تعميــد احــد من ابنــائه يحكم عليه بغرامة فادحــة ، ولذلك كــان كثير منهم يقتلون ابناءهم خشية تنصيرهم ، وكان الصناع والزراع والحرفيــون منهم يكلفون بالأعمال مثل العبيد ، ويجبرون على نحت التماثيل وبناء الكنائس وتجــديد بعض الآثار المسيحية(١٦) .

ولا تزال الكثير من الآثار الإسلامية والمسيحية فى اسبانيا تنطــق إلى اليــوم بفن وبراعة المدجنين(١٧) .

---

(١٦) الاندلسيون الموازكة ص ١٠٦ ، محاكم التفتيش ص ٢١ — ٣٦ ، رحلة الاندلس ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(١٧) منها قصر أشبيلية وبه جزء يسمى المدجــن ويعود تاريخه إلى سنة ١٣٢٦ م ، وواجهته تعتبر من أجمــل الأمثلة على الفــن المدجــن فى اسبانيا ، ومنها مسجد المدجنين فى طليطلة ويسمى اليوم دار الدباغين . ولا تزال مدينة طرويل (تيرويل) تحتفظ بالكثير من ملامح هــذا الفن إلى اليــوم فى ابراجها وكنائسها ومنها برج سان بدرو الذى يعتقد انه أول برج شيــد وفقــا للطراز المعمارى المدجــن . ولا يزال هنــــاك فى طرويل إلى اليوم من ينحــدر من ســــلالة المدجنين ويفتخر بذلك مثــل راعى الكنيسة ، كمــا يفتخر شــبابها بالفن المدجــن الذى يلمون به إلمــاما جيدا ويصنعون على مثالــه ويحتذونه ، وقــد عقد فى هــذه المدينة مؤخرا المؤتمر الثالث للفن المدجــن الذى اكد على ضرورة الحفاظ على كل النقــوش والآثار والقطع التى تنتمى لهــذه الفتره الأثرية الهامة من تاريخ المسلمين .

وقــد ادى هــذا إلى رحيل الكثيرين منهم ، أما عن بقى منهم فقــد حاول التأقلم مــع هــذه الأوضاع السيئة انتظارا لانفراج الأمور فى بعض الأحيـــان .

وقــد عاش هؤلاء المدجنون فى المجتمــع المسيحى وحاولوا التأقلم معــه والاندماج فيه ومن هنا كثر الزواج بينهم وبين الأسبان ، وفقــد المدجنون بمضى الزمن وتعاقب الأجيــال دينهم ولغتهم وأصــولهم العربية فنرى من بين زعماء شرق الأندلس بعض أمراء يرجعون إلى أصل مسيحى مثل محمــد بن ســعد الذى عــرف باسم (ابن مردنيش) ملك بلنسية ومرسيه وكان معظم قــواده وجنده من المسيحيين وكان الأسبان يسمونه بالملك (دون لوبى)(١٨) .

وإذا كان المدجنون قــد عاشوا أوضاعا ســيئة فى الأعم الأغلب إلا انهم مروا بفترات قليلة فيها شىء من الانفراج والتسامح . فيذكر ان الملك بيدرو الثانى الملقب بالقاسى — للجــوئه إلى أساليب دموية فى سبيل توطيد ملكه — والمعروف فى المصادر العربية باسم (دون بطره) اتخــذ لــه حرسا من المدجنين ، كما عهــد بإدارة حكومته إلى نفر من اليهــود ارتيابا منــه فى بنى وطنــه ، وفى مارس سنة ١٣٦٧ هـ تعهد الملك بيدرو الرابع بإطــلاق حرية الهجرة للمدجنين فى المعاهــدة التى عقــدها مــع

=

وقــد اعتبرت منظمة اليونسكو كل آثار الفــن المدجــن ثروة إنسانية عالمية يجب الحفاظ عليها (انظر : أوراق أندلسية ص ٤٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٦٧ ، د. السيد ســالم : مسجد المدجنين بطليطــة ص ٧٨ وبعــدها) .

(١٨) عنان : نهاية الأندلس ص ١٩٩ ، أندلسيات ص ١٤٢ .

السلطان الغنى بالله سلطان غرناطة وكان الملك خايمى الثانى ملك ارغون قد منع خروجهم من اراضى مملكته إلى أرض المسلمين لأسباب اقتصادية وعمرانية(١٩) .

وهناك وثيقة تذكر أن ملك نبارة (نافار) طلب من ملك ارغون توفير الحماية لسفر ستة من الرعايا المسلمين للحج وذلك بسبب قيام المسلمين بتقديم الأعمال والخدمات فى مملكة نافار وكان منهم قواد شاركوا فى تدريب قواتها(٢٠) .

غير أن الضغوط التى تعرض لها المدجنون قبل العقد الثانى من القرن السادس عشر الميلادى اختلفت عن الضغوط التى تعرضوا لها بعده ، فقد ظهرت اللوثرية (حركة مارتن لوثر) التى أدت إلى انقسام المسيحين فى اوربا إلى كاثوليك وبروتستانت ، واندلاع الحروب الدينية بينهم ، وكانت اسبانيا (قشتالة) تعتبر نفسها حامية حمى الكاثوليكية تحاربت من اجلها ، ومن اجل ابقاء هيمنتها على ممالكها الواسعة فى اوربا ، غير انها منيت بهزائم عديدة . وقد انعكس اثر ذلك على المسلمين فكان التعصب الأعمى ضدهم وطردهم من الأندلس ، وفقدت اسبانيا بذلك اهم الدعائم التى اقامت عليها امبراطوريتها ، وعندما قام فرناندو الثالث بتفريغ قرطبة من سكانها المسلمين بعد سقوطها سنة ١٢٣٦ م رحل قسم كبير من سكانها إلى مناطق الأندلس الأخرى التى لم تسقط ، بينما آثر القسم الآخر اختصار الطريق وعبور العدوة إلى فاس وخلفوا وراءهم الكثير مما يذكر بفنونهم وعلومهم إلى اليوم .

---

(١٩) عنان : نهاية الأندلس ص ٦٢ ، ١٢٠ ، ١٤٨ ، ١٧٣ .
(٢٠) اوراق اندلسية ص ١٦٦ .

ومن غـادر الاندلس بعـد ذلك من المسلمين إلى المغـرب سـاهم فى عملية بنـاء مدنه حتى كان الطرد الجماعى للمسلمين منذ نهاية سنة ١٦٠٩ م ، وحتى سنة ١٦١٥ م(٢١) .

ابدى فرديناند وإيزابيـلا فى الاعـوام الاولى بعـد اسـتيلائهم على غرناطة شيئا من اللين فى معاملة المسلمين ، لكن السياسة الأسبانية كانت تخشى منهم دائمـا بالرغم من خضوعهم ، وكانت الكنيسة تجيش بنزعتها الصليبية المتعصبة ، وتغـذى الحقـد والضغينة ضـد المسـلمين وتريد القضاء على البقية الباقية منهم فى اسـبانيا فى غرناطة وبلنسية وسرقسـطة وغيرها من القواعـد الشرقية التى يؤلف فيها المدجنـون من المسلمين اقليـات كبيرة ، وكان كثير منهم إلى ما بعـد سقوط غرناطة باعوام طويلة لا زالون يحتفظون بدينهم الإسلامى ، وكان وجرد وجود هذه الجموع المسلمة فى قلب اسبانيا يمثل الشغل الشاغل السلطات الأسبانية والكنيسـة . وكان الاسبان يخشون المسلمين وتجمعاتهم فى مملكة غرناطة بعـد سقوطها ، فاخـذوا فى التضييق عليهم واضطهادهم بشتى الوسائل والاجراءات ، حيث الزموهم بالسكنى فى احياء خاصة بهم على نحو ما كان متبعا مع اليهود فى أوربا فى العصور الوسطى ــ وكانت تسمى (موريريا) بينما كانت احياء اليهود تسمى (جيتو) ــ وكانت تفصل بينها وبين احياء الاسبان اسوار كبيرة ، ويقـدر عـدد المسلمين الذين بقـوا فى غرناطة حتى ذلك الوقت سنة ١٥٠١ م نحو اربعين الف مسلم(٢٢) .

---

(٢١) الأندلسيون المواركة ص ١٩٨ .
(٢٢) افرد بغرناطة للمسلمين المنصرين حيان : الحى الصغير ويضم نحـو خمسمائة منزل ويقـع داخل المدينة ، والحى الكبير ويضم نحـو خمسة آلاف منزل ويشمل ضاحيـة البيازين (نهـاية الأندلس ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧) .

وصـــدر فى سبتمبر سنة ١٥٠١ م قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح وكانت العقـوبة هى الحبس والمصـادرة للمخالف لأول مرة ، اما من تكرر منه ذلك فعوبته الإعـدام ، كما صـدر فى فبراير سنة ١٥١٥ م مرسوم ملكى يحرم على المسلمين المتنصرين حـديثا والمدجنين من اى جهة من تشتالة ان يخترقوا أراضى مملكة غرناطة ، وأن يبيعوا أملاكهم بدون ترخيص من الحكومة ، ومن خالف ذلك عوقب بالمصادرة والموت ، فـكان كثير منهم يظهر التنصر حتى يستطيع بيـع املاكه ثم يرحل إلى المغـرب فيعود إلى الإســلام مرة أخرى(٢٣) .

وبعـد ان فرض التنصير على المسلمين المترقين فى اسبانيا فر بدينه من فر منهم واما من بقى فقـد حاول بشتى الطرق المحافظة على شـعائر دينه سرا وإن اظهر النصرانية . وقام بعض العلماء منهم كعيسى بن جابر الشقوبى — من بلدة شقوبية — بوضع عـدة مؤلفات دينية ليستفيد منها هؤلاء المسلمون فى امور دينهم خفية . ومن اشهر ماخص واجبات المسلم الذى يعرف بكتاب (كدوريانو) أو كتاب شقوبية(٢٤) .

يقـول المقـرى : « ثم بعـد هـذا كلـه كان من أظهـر التنصر من المسلمين يعبد الله خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى انهم احرقـوا كثيرا منهم بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحـديد ... الخ »(٢٥) .

---

(٢٣) نهـاية الاندلس ص ٣٢٧ .
(٢٤) أوراق اندلسية ص ١٦٥ — ١٦٦ .
(٢٥) نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٢٧ .

أما المسلمون الذين بقوا فى مملكة البرتغال فقد كان مصيرهم فيها يبدو أفضل حالا من مصير إخوانهم مسلمى اسبانيا فقد قضى الملك البرتغالى باخراجهم من أراضى مملكته سنة ١٤٩٦ م ، وسمح لهم بالرحيل الى المغرب او أى جهة أخرى ، وطلب من ملكى أسبانيا (فردناند وايزابلا) السماح لهم بعبور أراضى مملكة قشتالة فوافقا على ذلك فى ابريل سنة ١٤٩٧ م شريطة الا يحملوا معهم الذهب والفضة(٢٦) .

احوال المدجنين بعد سقوط غرناطة(٢٧) :

---

(٢٦) نهاية الأندلس ص ٣٢٢ .

(٢٧) كلمة غرناطة تعنى رمانة بلسان عجم الأندلس ولعلها مشتقة من الكلمة الرومانية Granata بمعنى رمانة ، ولذلك فإنه يشار إليها فى بعض المصادر العربية بحصن الرمان . ويرى البعض أن هذه التسمية ترجع إلى أصل قوطى أو إلى أصل بربرى مشتق من اسم إحدى القبائل البربرية ، وهى أقدم مدن كورة البيرة وأعظمها وأحسنها وأحصنها يشقها نهر حدارة الذى يعرف اليوم باسم دارو Darro أو دارة . وقد دخلها الإسلام فى المرحلة الأولى من الفتح الإسلام على يد عبد العزيز بن موسى ابن نصير الذى قدم إليها من مالقة بعد فتحها (انظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٧٢ ، ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٩١ — ١٣١ ، الروض المعطار ص ٣٣ ، معجم البلدان ج ٤ ص ١٩٥ ، نهاية الأندلس : ص ٢٢ ، أوراق اندلسية ص ١٤) .
وقد اتخذ الأسبان من اليوم الذى سلمت فيه غرناطة فى يناير سنة ١٤٩٢ م عيدا قوميا يحتفلون به كل عام (أنظر : عنان : أندلسيات ص ١٦٠) .

كان زواج فرناندو (فرديناند) ملك ارغـون من ايزابيلا (إيسابلا) ملكة قشتالة سنة ١٤٦٩ م من أهم العـوامل التى وجـدت عرش هاتين المملكتين المسيحيتين فى اسبانيا ضـد المسلمين ، وكان هـذا الاتحـاد نذيرا بانتهاء النفـوذ السياسى للمسلمين فى الأندلس . ولم يكن سلاطين بنى نصر (بنى الأحمر) فى قـوة كبيرة تمكنهم من مواجهة هـذا الخطر المسيحى المتزايد نتيجة للمنازعات والخلافات المستمرة فيما بينهم على الملك والرئاسة ، ولمـا شاب علاقاتهم بدولة بنى مرين فى المغرب من ريبـة وشـك وتذبذب . فقـد كانوا يستنجدون بهم عند الخطر ولكنهم سرعان ما تساورهم الشكوك فيخشون فقـدان ملكهم على ايديهم ، ولذلك فإنهم كثيرا ما تواطئوا مـع الاسبان لإبعادهم عن الأندلس(٢٨) .

ولذا راى الملكان الكاثوليكيان أن الوقت قـد حال لتوجيه الضربة الأخيرة للمسلمين بالاستيلاء على آخر معقل لهم فى الأندلس وهو غرناطة التى كانت رمزا للدولة الإسلامية الذاهبة من الأندلس .

وقـد استغل هـذا الملكان اندلاع الخلافات بين افراد الأسرة الحاكمة فى غرناطة وحركا آلـة الحرب ضـدها ، وضربا الحصار على السواحل بستخدام اسـاطيل ارغـون والبرتغال وإيطاليا لمنع وصول العـون والإمدادات إليها من الشمال الإفريقى (بلاد المغرب) ، وأخـذا فى احتلال المدن الرئيسية فى المملكة ، وبدات حلقـة الحصار تضيق حـول مدينة

---

(٢٨) عنان : نهـاية الأندلس ص ٢٢٨ ، الورفـلى : اوراق اندلسـية ص ١٤ .

غرناطة شيئا فشيئا واستخدم الاسبان المدفعية على نطاق واسع لتقذف بحممها على المدينة(٢٩) .

وأصبح الخيار المطروح أمام المسلمين فى غرناطة إما القتال دون أمل يذكر فى تحقيق النصر أو الاستسلام للعـدو ، وضرب فرناندو حصـارا صارما حـول المدينة بجيش بلغ تعـداده خمسين الفا أو ثمـانين الفا ، واستعد لذلك فأنشأ مدينة مسورة تقيـه برد الشتاء والثلوج — بعـد أن طال الحصار لمدة سبعة أو تسعة أشـهر — إلى الجنـوب الغربى من غرناطة وسميت سانتا فى Saint — pe أو شنتفى أى الإيمان المقـدس وهـذا يوضح المغزى الدينى لهـذه الحرب الصليبية(٣٠) .

---

(٢٩) عرفت المدافـع التى استخدمت ضـد غرناطة ومالقة باسم لومبارد وكان من أضخمها وأشدها أثرا مدفـع أطلق عليه (أخوات خمينيس السبع) نسبة إلى رئيس أســاقفة غرناطـة الكاثوليكى المتعصب خمينيس (زمنيز) (الأندلسيون المواركة ص ٩٨ هامش ١) .

(٣٠) ما تزال هـذه المدينة قائمة إلى اليوم على مسافة قريبة من جنوب غرب غرناطة ، ويصفها المؤرخ الأسبانى بريسكوت بأنهـا المدينـة الأسبانية الوحيدة التى لم تطـأها قـدم مسلم (نهـاية الأندلس ص ٢٣٦). ومنذ البداية كان هناك توافق بين مرحلة سقوط الأندلس ومرحلة الحـروب الصليبية ، وهـو توافـق لم يـأت عن طريق المصادفة ، فقـد كانت طليطلة أولى المـدن الأندلسية سقوطا سنة ١٠٨٥ م (٤٧٨ هـ) ، وكان سقوط بيت المقـدس بأيدى الصليبيين

ومما يدل على ذلك : أن البابا سيكتوس الرابع عندما تلقى من إيزابيلا رسالة تعرض فيها خطتها للاستيلاء على مملكة غرناطة أبدى تحسما شديدا لها ، وأصدر إرادة بابوية بشن حملة صليبية ضدها فى اكتوبر سنة ١٤٦٩ م تضمنت السماح لها ولزوجها فرديناند بتحصيل ضريبة للجهاد ضد المسلمين ، ثم جاء من بعده البابا أنوسنت الثامن (١٤٨٤ — ١٤٩٢ م) فاستكمل ما بداه سلفه فجدد هذه الإرادة البابوية عدة مرات حتى سقطت غرناطة وأرسل إليه فرناندو يبشره بقوله « ولدك المطيع المخلص ملك قشتالة وليون وارغون وصقلية وغرناطة يقبل قدميك ويديك الطاهرتين ويبشرك بأن الرب أنعم علينا بنصر مبين على مسلمى غرناطة أعداء ديننا الكاثوليكى الطاهر »(٣١) .

ومما يدل على ذلك ايضا أن الكنيسة كانت قد أصدرت مرسوما أعفت بموجبه الاسبان من الاشتراك فى الحروب الصليبية حتى يحاربوا المسلمين فى الاندلس . هذا إلى جانب من شاركهم من مسيحيى أوربا(٣٢) .

سنة ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) عامل تشجيع لزيادة دعم ملوك أوربا والكنيسة للأسبان المسيحين لاسترداد بقية الأراضى من المسلمين وطردهم نهائيا (الأندلسيون المواركة ص ٥٩) .

كما نلحظ توافقا بين سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م وبين سقوط غرناطة فى يد الاسبان سنة ١٤٩٢ م مما يجعلنا نقول إن هذه دفعت ثمن سقوط تلك .

(٣١) الأندلسيون المواركة ص ٦٨ .

(٣٢) أوراق اندلسية : ص ٤١ .

ولم تستسلم غرناطة لقدرها المحتوم بسهولة بل دافع عنها أهلها دفاعا مستميتا وظهرت من كثير منهم ضروب من البطولات ، ولكن هذا لم يكن ليصمد طويلا امام هذا الحصار الأسبانى الصارم ، ولم يعد امامهم اى امل فى الغوث او الانقاذ من الدول الإسلامية فى ذلك الوقت سواء من بلاد المغرب او مصر او الدول العثمانية . وظلت المدينة تعانى آلام الحصار حتى دخل الشتاء واشتد الجوع والبلاء بأهلها ، وهنا تشاور الملك ابو عبد الله مع كبار القادة والعلماء والأعيان فاستقر الرأى على التسليم عدا القائد موسى بن أبى الغسان الذى حاول ان يبث الحماسة فى النفوس دون جدوى(٣٣) .

واستمرت المفاوضات بين الطرفين عدة اسابيع حتى تم الاتفاق على وضع بنود معاهدة التسليم ووقعت فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم سنة ٨٩٧ م) وفى نفس اليوم وقعت معاهدة اخرى او ملحق سرى للمعاهدة الاولى ويتضمن الحقوق والمنح التى ستعطى للسلطان ابى عبد الله الغرناطى وأسرته وحاشيته(٣٤) .

---

(٣٣) نهاية الأندلس ص ٥٤١ .

(٣٤) تذكر معظم المصادر العربية أن هذه المعاهدة تضمنت سبعة وستين شرطا . بينما يذكر الأستاذ عنان أن هذه الشروط بلغت ستا وخمسين مادة كما نقلها عن نصوصها القشتالية . ولا تناقض فى لذلك فلعل هناك دمجا لبعض الشروط فى بعضها فى النص الأسبانى وتفصيل لبعض هذه الشروط فى المصادر العربية (أنظرها فى نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٢٥ وبعدها ، نبذة العصر ص ٤٨ ـ ٥٠ ، أزهار الرياض جـ ١ ص ٦٧ ، عنان : نهاية الأندلس ص ٢٤٥ وبعدها) .

خرق الأسبان للمعاهدة :

شملت معاهدة تسليم غرناطة من الشروط ما يمكن اهلها من ان يعيشوا عيشة مقبولة لا بأس بها فى ظل الحكم الأسبانى ، حيث ضمنت سلامة ارواحهم وممتلكاتهم ، وسمحت لهم بالهجرة إلى المغرب إذا ارادوا، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين ، وعدم إكراه أحد منهم على التنصر ، وعدم طردهم من ديارهم ، أو زيادة الضرائب عليهم ، والسماح لهم بممارسة شعائر دينهم ... الخ .

واشترط موافقة البابا وتوقيعه عليها ، إلا أن فرديناند وايزابيلا اخذا فى تشجيع المسلمين وحثهم على الرحيل وضيقوا عليهم ، وقصروا إقامتهم على اماكن معينة فى منطقة البيازين(٣٥) . وتم توطين آلاف من الأسبان المسيحين فى المناطق الأخرى من غرناطة .

سلمت غرناطة فى اليوم الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ م فى يوم مروع كان وقعه شديدا على نفوس أهلها ونفوس المسلمين جميعا فى ذلك الوقت ، وقام أبو عبد الله بتسليم مفاتيح المدينة للملك فرناندو(٣٦) ودخلت

---

(٣٥) البيازين : Albaician البيازين أو البياسين نسبة إلى مدينة بياسة شرق قرطبة حيث نزح أهلها عنها بعد سقوطها واستقروا فى الرباض التى تشرف على نهر حدرة من الجهة المقابلة للحمراء وغرناطة فنسبت إليهم (أوراق اندلسية ص ٢٠ ، أدب الأندلس وتاريخها ص ٦٧) .

(٣٦) تذكر بعض الروايات أن مفاتيح المدينة سلمت للقائد الأسبانى دون غرنارى وأن القائد المسلم ابن كماشة هو الذى قدم مفاتيح الحمراء إلى الملك فرناندو (عنان نهاية الأندلس ص ٢٦٦) .

طلائع الجيش الأسبانى المدينة ونصبت على الحمراء(٣٧) فى قمة برج نيلا راية القديس جاك إلى جانب الصليب الفضى(٣٨) .

وخرج أبو عبد الله إلى ضيعة صغيرة كان الملكان المنتصران قد اعداها له فى منطقة البشرة او البشرات جنوبى غرناطة ، واشرف اثناء خروجه على منظر مدينة غرناطة . واخذ يسرح ببصرة لآخرة مرة فى هذه الربوع التى شهدت عزة وملكه وسلطانه فانهمر دمعه وأجهش فى البكاء فصاحت به امه عائشة قائلة القولة المشهورة :

اجل ذلتبك كالنساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال(٣٩)

---

(٣٧) قصر الحمراء : بدأ بناءه أبو الوليد إسماعيل خامس أمراء بنى الأحمر ١٣٢٥ م ، ثم زاد فيه ابنه الحجاج يوسف ١٣٥٤ م ، ثم أتمه محمد الغنى بالله ١٣٥٩ م ، وقد وسع القصر والبسه حلة من الجمال والبهاء واستمر البناء فيه نحو خمسين سنة حتى صار كالمدينة ولذلك يطلق عليه البعض اسم مدينة الحمراء (اوراق اندلسية ص ٢٤) . دائرة معارف الشعب (كتاب الشعب ٦٤) ص ١٢٤ .

(٣٨) ليفى بروفنسال : ادب الاندلس وتاريخها ص ٦٢ .

(٣٩) يذكر بعض الباحثين المعاصرين أن العبارة لم تكن بهذه الصورة وإنما كانت (لا تبك كالنساء ملكا حافظت عليه كالرجال) وأن الأسبان هم الذين حرفوها لتكون بهذه الصورة . ولا ندرى من اين اتى بذلك رغم أن المصادر القديمة والحديثة قد ذكرت العبارة بصورتها الأولى ، وهى ابلغ فى الدلالة لأن هذا الملك لم يحافظ على ملكه كالرجال لتعاونه مع الأسبان فى بعض الأحيان من اجل مساندة ملكه وسلطانه ، واستعانته بهم ولما جاءت اللحظة الحاسمة بكى كالنساء ، ولم يكن رجلا ليصمد ويتحمل نتائج

ولا يزال ذلك المكان الذى بكى فيه أبو عبد الله يعرف اليوم لدى الأسبان باسم (زفرة المورسكى الأخيرة) أو زفرة العربى الأخيرة(٤٠) .

وخرج أبو عبد الله — الذى يسميه الاسبان بالملك الصغير أوبوباديل ويلقب (بالزغيبى أو عاثر الحظ) إلى المغرب ومعه أهله وحاشيته وعاش فى فاس حتى توفى بها سنة ٩٤٠ هـ وبقى نسله فيها إلى سنة ١٠٣٧ هـ يعيشون فى حالة مادية ضيقة ويصرف لهم من أوقاف المسلمين(٤١) .

حسب هذه المعاهدة تعهد الملكان الكاثوليكيان بأمور كثيرة للمسلمين لكنهما لم يوفيا بذلك طويلا فقد أخذا ينقضان نصوص المعاهدة شيئا فشيئا ، ويعدلان فيها حسب ما يحلولهما ، ويفسرانها حسب ما يريدان لتنفيذ أهدافهما فى القضاء على الإسلام والمسلمين فى الأندلس .

كان من شروط التسليم أن تظل للمسلمين حريتهم الدينية وأملاكهم على أن يصبحوا من رعايا الحكومة الأسبانية ، لكنها لم توف بذلك

المأساة التى صنع أجزاء منها بيديه حتى لقبه البعض بالملك الخائن وقد حاول الدفاع عن نفسه وتوضيح موقفه فى رسالة بليغة كتبها على لسانه وزيره وكاتبه محمد بن عبد الله العقيلى . انظر : أوراق أندلسية ص ١٥٢ ، د. أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ ، عنان : نهاية الأندلس ص ٢٨٠ .

(٤٠) بروفنسال : أدب الأندلس وتاريخها ص ٦٣ . ولا يزال هذا المكان من المزارات السياحية الهامة لدى الأسبان فى غرناطة (عنان : نهاية الأندلس ص ٢٦٧ ، أندلسيات ص ١٠٠) .

(٤١) محاكم التفتيش ص ١٥ ، أندلسيات ص ١٠٣ .

إلا سنوات معـدودة حتى تستطيع بسـط سـلطانها وسـيطرتها كاملة على سـكان غرناطة .

وحاول أول رئيس لأساقفة غرناطة (هرناند وطلبيرة) اقتنـاع المسلمين فى غرناطـة باعتناق المسيحية ، وفى سـبيل ذلك طلب من القساوسة تعلم اللغـة العـربية ، وترجم عـددا من الكتب المسيحية إلى العربية . هـذا فى الوقت الذى كان فيـه نبلاء قشتالة المسيحيين يلتهمون أراضى وممتلكات أهل غرناطة المسلمين بكل وسيلة ممكنة(٤٢) .

ومضت بضع سنوات ثقيلة والمسلمون يحاولون التأقلم مـع واقـع جـديد تفرضه السلطات الاسبانية من النهـب والمصادرة والاضطهاد والتضييق ، وبدأت المساجد تتحول قسرا إلى كنائس ، واخـذ اليأس يدب فى نفـوس المسلين بعـد أن فقـدوا الأمل فى الحصول على عـون إخوانهم فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت(٤٣) .

وبدأ رئيس أساقفة غرناطة الجـديد المتعصب خمينيس (زمنيز)

---

(٤٢) الأندلسيون المواركة ص ١٠٧ ، نهاية الأندلس ص ٣٢٤ ، د. محمود المقـداد تاريخ الدراسات العربية فى فرنسا ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٤٣) شبيه بهـذا موقف الدول الإسلامية من مأساة البوسنة والهرسـك من التقاعس والتخاذل ، وعـدم المناصرة الجـدية والفعالة وعـدم التحرك على مختلف الأصعدة لحل هـذه الازمة ، وعـدم فتح باب الجهاد والتطوع لمن يريد ، كل ما هنالك مساعدات ضئيلة من المال والطعام والدواء والعلاج لا تجـدى فتيلا ، والمسلمون يحتاجـون فى الدفاع عن أنفسهم إلى معـونة وسـلاح لا إلى مجرد كلمـات الشجب والإدانة .

فى تنفيذ مخططاته الخبيثة لإجبار المسلمين على التنصر بشتى السبل ، واتخذ اعوانه شتى وسائل الاضطهاد والتعذيب لحمل المسلمين على ترك دينهم وسلخهم عن تاريخهم وحضارتهم .

وأخذوا يحرقون كل ما تقع عليه أيديهم من مصاحف ومخطوطات وكتب إسلامية وعربية ، ومنها آلاف المخطوطات التى أحرقت فى الميدان الرئيسى فى غرناطة بأمر ذلك المتعصب . وبدأت محاكم التحقيق (التفتيش) تمارس اختصاصاتها ضد المسلمين متخذه فى ذلك أبشع أساليب التعذيب والموت .

وكان لابد لهذه السياسة المتعصبة من أن تثير مكامن الحقد والغضب فى نفوس المسلمين فكانت ثورتهم الأولى فى منطقة البيازين سنة ١٥٠٠ م والتى امتدت إلى البشرات وبسطة ووادى آش والجبل الاحمر ولكن قضى عليها فى شدة وقسوة بالغتين(٤٤) .

بعد أن تدخل الملك فرناندو للقضاء عليها بنفسه على أثر مقتل الكثيرين من الأسبان فى المعارك التى خاضوها ضد المسلمين ووصل عددها إلى ثلاث وعشرين معركة(٤٥) .

وعلى اثر هذه الثورة صدر مرسوم فى الحادى عشر من فبراير سنة ١٥٠٢ م من الملكة إيزابيلا يخير جميع المسلمين بين الخروج من الاندلس أو اعتناق المسيحية ونص على : أن من واجب أهل قشتالة

---

(٤٤) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١٧٥ ، الأندلسيون المواركة ص ١١٤ — ١١٨ .

(٤٥) مؤلف مجهول : نبذة العصر فى أخبار دولة بنى نصر ص ٤٥ .

طرد أعداء الدين المسيحى من مملكتى قشتالة وليون ، والا يبقى ذكر فوق سن الرابعة عشرة ولا أنثى فوق سن الثانية عشرة بعد شهر إبريل (نيسان) إلا إذا تنصروا ، وسمح للمسلمين ببيع عقاراتهم وممتلكاتهم إذا رغبوا فى الرحيل ، وحظر عليهم إخراج الأموال فى نفس الوقت ، وتم تنفيذ ذلك بكل دقة من قبل السلطات الاسبانية ، وبنهاية المدة المحددة التى لا تتجاوز الثلاثة اشهر رحل عن الأندلس نحو ثلاثمائة الف مسلم إلى المغرب ومصر وبلاد الشام(٤٦) ومن بقى أصبح منصرا بموجب هذا المرسوم .

ويصور المقرى ذلك فيقول : « ثم إن النصارى نكثوا العهد ، ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها واقـواها عليهم انهم قالوا : إن القسيسين كتبوا على جميع من اسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ، ثم تعدوا إلى أمر آخر وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن كان جدك نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا ، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصر (التنصير)(٤٧) .

ويقول أيضا : « فلما رأى الطاغية فرناندو أن الناس قد تركوا الجواز (الرحيل) وعزموا على الاستيطان والمقام ، اخذ فى نقض الشروط التى اشترط عليها المسلمون أول مرة — عند سقوط غرناطة —

---

(٤٦) الأندلسيون المواركة ص ١١٩ .

(٤٧) نفح الطيب حـ ٤ ص ٥٢٧ .

ولم يزل ينقضها فصلا فصلا إلى أن نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين ، وأدركهم الهوان والذلة ، واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم المغارم الثقيلة ، وقطع عنهم الأذان فى الصوامع ، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى فخرجوا أذلة صاغرين . ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا فيه كرها وصارت الأندلس كلها دار كفر »(٤٨) .

ويقول : « وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم عن التنصر واعتزلوا سرا النصارى فلم ينفعهم ذلك »(٤٩) .

ويقول صاحب كتاب نبذة العصر الذى عاصر سقوط غرناطة فيما يبدو : « ثم بعد ذلك دعاهم (أى فرديناند) إلى التنصير (التنصر) وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا فى دينه كرها وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا من يقولها بقلبه وفى خفية من الناس »(٥٠) .

لكننا لا نستطيع أن نسلم بما قاله المقرى وصاحب كتاب نبذة العصر بسهولة فما حدث فى الواقع لا يؤيد القول بأن المسلمين تنصروا بالجملة عن آخرهم بادية وحاضرة ، وأن الأندلس كلها صارت دار كفر أو نصرانية مرة واحدة ، فلم يكن من السهل تطبيق هذا المرسوم على كل الأندلسيين المسلمين فى هذه المدة القصيرة التى لا تتجاوز الثلاثة أشهر ، وفى كل مكان لاسيما وأن هناك أقليات مسلمة كانت تعيش

---

(٤٨) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٨ — ٦٩ .
(٤٩) نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٦ .
(٥٠) نبذة العصر فى أخبار دولة بنى نصر ص ٥٤ — ٥٥ .

فى اماكن نائية ، بالإضافة إلى أن المرسوم لم يشر إلى مسلمى مملكة أرغون ، ويبدو أن تركيزهما كان منصبا — كغيرهم — على غرناطة وما حدث فيها فحكما بذلك .

والحقيقة أن المسلمين فى مملكتى قشتالة وليون وجدوا أنفسهم متنصرين بصورة قسرية وبواسطة مرسوم مفروض عليهم إعتبارا من أوائل شهر مايو سنة ١٥٠٢ م (٩٠٧ هـ) ، واضطر المسلمون المدجنون تحت وطأة التهديد والاضطهاد والتنكيل فى أبلة وسمورة وجليقية إلى التنصر كذلك بعد أن كانوا لا يزالون محتفظين بدينهم الإسلامى حتى ذلك الوقت(٥١) .

وهكذا اضافت الكنيسة الكاثوليكية فى اسبانيا إليها نحو نصف مليون مسلم متنصر بالاسم فقط ، وحولت مساجدهم إلى كنائس ، وازيل بعضها ، ومنعوا من ممارسة شعائرهم الإسلامية ولكنهم استمروا يمارسونها فى الخفاء(٥٢) .

وفى سنة ١٥٠٨ م (٩١٤ هـ) أصدر الملك فرناندو (فرديناند) مرسوما يحظر فيه على الأندلسيين المسلمين استخدام اللغة العربية ،

---

(٥١) عنان : نهاية الأندلس ص ٣٢٣ ، الأندلسيون المواركة ص ١٣١ .

(٥٢) راجع نفح الطيب جـ ٢ ص ٦١٦ — ٦١٧ ، نبذة العصر ص ٥٥ ، وقد ذكر البعض أن عدد سكان غرناطة قبل سقوطها كان يقدر بنحو مليون نسمة ، وأن عدد سكان قشتالة قدر بنحو ستة ملايين (انظر أوراق أندلسية ص ١٩ ، ٢٠) . ونعتقد أن عدد سكانها قبل السقوط كان أكثر من ذلك حيث انضم إليهم الكثيرون من المسلمين من المدن والقواعد التى سقطت فى يد الأسبان المسيحيين .

وارتداء الملابس التقليدية ، وممارسة العادات والتقاليد الإسلامية والعربية لكنهم تجاهلوا ذلك فى أحيان كثيرة .

ولم تستطع السلطات الاسبانية تطبيق هـذا المرسوم بدقة بسبب عناد وإصرار المسلمين على الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليـدهم ولغتهم ، ولم تشدد السلطات فى ذلك كثيرا خشية اندلاع الثورات مرة اخرى(٥٣) .

ولجـأت الحكومة الاسبانية إلى شىء من أساليب الرفـق واللين والوعـود إلى جانب أسـاليب التهـديد والوعيـد وصولا إلى تحقيق اهـدافها فى تنصير من بقى من المسلمين ، وبالرغم من عـدم جـدوى هـذه الأساليب كثيرا إلا أن العاهلين الكاثوليكيين لم يقـوما بترحيـل جميع المسلمين من أسبانيا برغم قـدرتهما على ذلك حتى لا يؤدى هـذا إلى خراب غرناطـة وغيرها كما حـدث فى المناطـق الأخرى التى اجبر المسلمون على مغادرتها فى السابق ، فلا يمكن ملء الفراغ الذى سيتركه المسلمون فى غرناطة وغيرها بسهولة خاصة وانهم يعملون فى شتى مناحى الحياة ولذا فقد تأجلت عملية الطرد أو الإبعاد إلى بداية القرن السابع عشر الميـلادى(٥٤) .

وفى عهـد الملـكة خـوانا المعتـوهة (١٤٧٩ — ١٥٥٥ م)(٥٥)

---

٥٣) الاندلسيون المواركة ص ١٤٣ .

٥٤) الاندلسيون المواركة ص ١٢٢ .

٥٥) كانت الأميرة ضونيا خوانا قـد تزوجت من الأرشيدوق النمساوى (ضـون فيليب الجميل) ، ولدى وفاة أمها الملكة إيزابيلا الكاثوليكية سنة ١٥٠٤ م آلت وراثة العرش إليها طبقـا لأمر والدتها الـذى =

والذى امتد من ١٥٠٤ إلى ١٥١٦ ، ازدادت المراسيم الجائرة التى صدرت بشأن المسلمين فى الأندلس ، وصارت اكثر بنودا وأشد تضييقا حيث كان الكاردينال المتعصب (خمينيس دى سيسنيروس) رئيس مجلس الوصاية الحاكم باسم الملكة هو المشرع والمنفذ لهذه المراسيم التى تتميز بالقسوة والصرامة ، والتى أريد بها طمس كل اثر للإسلام والعروبة فى نفوس المسلمين المتبقين فى الأندلس ، ومن هذه المراسيم :

= اصدرته قبيل وفاتها فى نفس العام ، وطبقا لأعراف قانون الوارثة المتبع فى البلاد وكانت ابنتها الكبرى ، وما إن تولت العرش بعد زواجها حتى قامت منافسة شديدة بين زوجها وبين والدها فرديناند تحولت إلى خصومة شديدة أودت بحياة فيليب ، فيقال إن فرديناند قد دس من سقى السم لزوج ابنته فى ٢٥ ايلول سنة ١٥٠٦ م ، وحزنت خوانا لفقد زوجها حزنا شديداً ، وفقدت صوابها ، وغدت كالمجنونة حتى أصبحت غير قادرة على إدارة ممتلكاتها ، فقام بذلك مجموعة من النواب او المتنفذين يحكمون بالنيابة عنها . وكان لوالدها نصيب الأسد فى هذه النيابات حيث حكم بالنيابة عنها مرتين : الأولى من سنة ١٥٠٤ إلى ١٥٠٦ م قبل وفاة زوجها ، والثانية من ١٥٠٧ حتى وفاته هو سنة ١٥١٦ م ، وقبيل وفاته أوصى بميراث العرش لحفيده شارل الأول تحت وصاية الكادرينال المتعصب سيسنيروس وهو فى سن السابعة فتتابع مخططاته الانتقامية ضد المسلمين .

(انظر مجلة دراسات ص ٧١ وبعدها) .

مرســـوم خـــاص بالمـــلابس :

يحظر على المسلمين المنصرين ارتداء الملابس العربية التقليدية ويلزمهم بارتداء الملابس الاسبانية ، وأمهلهم ست سنوات لتنفيذ ذلك ثم زيدت المدة بعـــد ذلك إلى عشر سنوات ، كما صـــدر مرسوم آخر يلزم كل طبقـــة اجتماعيـــة بلبس ملابس خاصـــة بهـــا ، واعطيت النســاء المسلمات مدة سنتين كمهلة للتخلص من استخدام الملحفة وغطاء الرأس .

مرســـوم خـــاص بالذبائـــح :

وفيه يحظر على المسلمين المنصرين ذبـــح حيواناتهم على الطريقـــة الإسلامية ، وأن تذبح فى المسلخ الحكومى ، ويقـــوم بالذبح جزار مسيحى من اصل اسبانى قـــديم . واســـتثنى من ذلك صـــيد الجبـــال والدواجن فى البيوت ، ثم ما لبث ان الغى هذا الاستثناء ايضا فى يوليو سنة ١٥١٣ م .

مرســـوم خـــاص بالزواج :

يلزم المســـلمين المنصرين (الموريســـك) بالزواج على الطريقـــة المسيحية ،وأن يتزوج المسلم المنصر من مسيحية اصيلة ، وتتزوج المسلمة المنصرة من مسيحى اصـــلى ، وأن يكون الاشـــبين القـــائم بالتزويج من المسيحين القـــدماء وليس من الموريسكيين او اليهود المعمدين حديثا .

مرســـوم خـــاص بالزيارات :

ويلزم المقيمين خـــارج غرناطة من المسلمين المنصرين بعـــدم زيارة إخـــوانهم فى غرناطة خـــوفا من اجتماعهم لاشعال الثورات ، ويعـــاقب من يخالف ذلك بالإحراق حيـــا ومصادرة ممتلكاته .

مرســوم خــاص بالكتب والمخطوطات :

ويلزم كــل مسلم منصر بتسليم ما لــديه من كتب بالعربية فى مدة لا تتجاوز خمسين يوما لفحصها وإحراق ما لــه أدنى صــلة بالإســلام منها ، ورد كتب الطب والفلسفة والعلوم الأخرى غير الدينية إلى أصحابها بعــد الحصول على ترخيص بذلك ، ومعاقبة من يخالف ذلك بمصــادرة ممتــلكاته .

ويلاحظ أن السلطات الأسبانية لم تكن تعيد أى كتب أو مخطوطات إلى أصحابها وخاصة بعــد قيام محاكم التحقيق (التفتيش) التى شــنت حملة شــعواء متعصبة على كل ما يتعلق بالإسلام والعروبة فى الأندلس بقصــد الإبادة والتدمير .

مرســوم خــاص ببيــع الممتلكات :

ويلزم أى مسلم منصر بعــدم بيع ممتلكاته إلى مسلم آخر إلا بعــد الحصول على إذن من الســلطات الأسبانية التى لم تكن تمنــح ذلك إلا فى القليل النادر وبعــد التأكد من إخلاص البائع للمسيحية بقصــد إجبارهم على بيعها للاسبان بأبخس الأثمــان ، ومن يخالف ذلك يعــاقب بالإحراق والمصادرة ، ثم صدر مرسوم آخر يمنعهم من بيع ممتلكاتهم نهائيا خشية الفرار بثمنها إلى بلاد المغرب كما فعل الكثيرون والعودة إلى الإسلام هنــاك(٥٦) .

---

(٥٦) الإسلام فى أسبانيا ص ١٧٥ ملحمــة المغازى الموريسكية ص ٢٤ ، مجــلة دراســات ص ٧٩ .

مرســوم خــاص بالميراث :

يمنع المسلمين المنصرين من توزيــع مواريثهم حســـب الشريعــة الإسلامية ، وتوزيعها حسب الأعراف والقوانين الاسبانية ، ومعاقبـــة من يخالف ذلك بعقوبات صارمة كالسجن والمصادرة(٥٧) .

مرســوم خــاص بحيازة الأســلحة :

يمنع المسلمون المنصرين من حمــل أى نوع من السلاح إلا بإذن من السلطات الأسبانية — بينما ابيح ذلك للاسبان بحجــة الدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم ضـــد اعتداءات المسلمين المنصرين بزعمهم —(٥٨) ومن يخالف ذلك يعاقب بالنفى ومصادرة ممتلكاته ، وإذا فعــل ذلك مرة أخرى حكم عليــه بالإعــدام .

مرســوم خــاص بمنع ممارسة الشعائر الإسلامية والالتحاق بالثوار :

وينص على أن كل مسلم منصر يضبط متلبسا بممارسة شعائر الإسلام فإنه يعاقب بأشــد العقوبات التى تصل إلى المصادرة ، وكذلك إذا شارك فى أى ثورة او التحق بالثوار المعتصمين فى الجبال .

ومرســوم خاص بمنــع التعامل او التعــاون مــع مسلمى شمال افريقية ، ومن يخالف ذلك يعاقب بالإعــدام ، ومرسوم خاص بالفــارين

---

(٥٧) مجلة دراســات ص ٧٩ — ٨٠ .

(٥٨) هــذا هو الأسلوب الذى تتبعه إسرائيل اليــوم بالنسبة لســكان المستعمرات اليهود بحجــة الدفاع عن انفسهم ضــد الفلسطينيين وما يفعله الغرب المسيحى ضــد المسلمين فى البوسنة والهرســك وغيرها من الدول الإسلامية التى فرض عليها الحصار ، وتطبــق عليها العقوبات الاقتصادية ، كالعراق ولنيبيا .

من غرناطة ينص على أن من يهرب من المسلمين المنصرين يحرم من ممتلكاته وتصادر ، وإذا عاد إليها يقبض عليـــه ويباع كالعبيد(٥٩) .

فى عهـــد الملك شارل الأول (شـــارلكان) :

توفى الملك فرناندو (فرديناند) الكاثوليكى فى ٢٣ يناير سنة ١٥١٦ بعـــد أن أوصى لحفيده شـــارل الأول بالعرش أثناء حكم ابنته خـــوانا المعتوهة التى كانت مجرد أداة فى أيدى نوابها تكتفى بالتوقيع على المراسيم – تحت وصاية الكاردينال سيسيفروس – الذى استغل صغر سن الملك الجـــديد لمتابعة مخططاته الانتقامية وممارسة سياساته القمعية ضـــد المسلمين ، ومنها إلى جانب المراسيم والقوانين الجائرة تأسيس جمـــاعات عسكرية منظمة استخدمها ضـــد المسلمين فى اسبانيا وشمال افريقية . وحاول هـــذا الكاردينال الاستبداد بالامور من دون الملك شارل والتخلص منه لـــولا أن كشف الأب درياتو (أستاذ الملك شارل) وغيره من العيـــون والمنافسين مخططاته والاعيبه . ويقـــال إنه استطاع التخلص منه بعـــد أن استدعاه إلى قصره سنة ١٥١٧ م(٦٠) . ورجا المسلمون بعد وفاة هذا الكاردينال المتعصب أن يكون العهـــد الجـــديد خيرا من سابقه . وقـــد أبدى الملك شارل المعروف بالامبراطور شارلكان شيئا من اللين والتسامح فى أول الأمر نحـــو المسلمين ، وخففت محاكم التفتيش شيئا من وسائلها فى مطاردة المسلمين ، وتدخـــل النبلاء والســـادة الذين كان المسلمون يعمـــلون فى ضـــياعهم فى مملكة أرجـــون لدى الملك للكف عن التعرض

---

(٥٩) المرجـــع الســـابق ص ٨٠ – ٨١ .
(٦٠) مجلة دراســـات ص ٧٧ – ٧٨ .

لهم(٦١) . ولكن ذلك لم يدم طسويلا حيث ما لبثت كلمة العناصر المتعصبة فى البلاط والكنيسة ان تغلبت فعادت المراسيم المتشددة من جـديد .

فاصدر الملك مرسوما جديدا فى سنة ١٥١٨م يقضى بمنع الموريسكين (المسلمين المتنصريين) من ليس الثيـاب العربية ، ولكنهم لم يعباوا بذلك فاضطر إلى اخـذهم بالشدة والقسوة ، كما صدر مرسوم آخر فى مارس سنة ١٥٢٤ م يحتم على كل مسلم بقى على دينه أن يتنصر وإلا تم إخراجه من أسبانيا ، ومن ابى ذلك فإنه يسترق مدى الحياة ، ويأمر بتحويل جميع المساجد الباقية إلى كنائس ، ثم اصـدر مرسوما آخر فى السنة التاليـة (١٥٢٥ م) يحرم على المسلمين المتصرين الخروج من أحيائهم التى يقيمون بها للسكنى فى غيرها ، ويحرم عليهم العمل فى ايام الاعياد ، ويحرم عليهم الاذان ، ويلزمهم بحمل علامات مميزة تدل عليهم كأن يضعوا فى قبعاتهم قطعة من القماش الازرق فى صـورة هلال ، وفرض عليهم التعميد فى اليـوم الثامن من شهر ديسمبر من تلك السنة ، وطلب من اهل بلنسية الخروج من اسبانيا فى نهاية هـذا الشهر نتيجة لثورتهم ، اما مسلموا الأمصار الاخرى فقد حـدد لهم اجلا للخروج فى يناير سنة ١٥٢٦ ، ولكنهم طلبوا منه أن يؤخرهم اربعين سنة(٦٢) . ولمـا انتهى الأجـل عقـد فى مجريط (مدريد) اجتماعا مـع كبار قادته ومستشاريه ورجال الكنيسة لبحـث مشكلة الموريسكيين على اثر استغاثتهم به وشكواهم إليه على يد وفـد منهم . واسفر هـذا الاجتماع عن نتائج سيئة بالنسبة للموريسكيين فقـد حرم عليهم التحـدث بالعـربية ، واستخدام الحمامات ، وإقامة الحفلات

---

(٦١) عنـان : نهـاية الأندلس ص ٣٥١ .
(٦٢) الإسـلام فى اسـبانيا ص ١٧٥ – ١٧٦ .

وقرر أن التنصير الذى وقــع على المسلمين صحيح ولا تشوبه شـــائبة لأنهم سارعوا بقبوله اتقــاء لمــا هو شر منه فكانوا بذلك أحرارا فى قبوله لم يرغمــوا على ذلك ، يا للعجب ! ولذلك يعلق بعض المؤرخين المسيحين فى سخرية بالغــة فيقول « وهكذا أعتبر التنصير الذى فرضـــه القوى على الضعيف والغالب على المغــلوب والسيد على العبــد منشئا لصفة لا يمكن لإرادة معارضـــة أن تزيلها » .

وعلى اثر ذلك اصــدر الملك أوامره بارغـــام المسلمين المتنصرين على البقاء فى اسبانيا باعتبارهم نصارى وتنصير أولادهم ، فإذا إرتدوا تقضى عليهم بالموت والمصادرة ؛ وبتحويل جميع المساجد المتبقية إلى كنائس على الفــور(٦٣) .

وكان لهــذا كله وقعه السىء على المسلمين مما أدى إلى ثورتهم فى معظم أنحاء اسبانيا فى البشرات وسرقسطة وبلنسية التى كانت تضم عــددا كبيرا من المسلمين يبلغ زهاء سبعة وعشرين الف اسرة ، وغيرها من المناطق واستطاع المسلمون أن يلحقوا بالجيش الأسبانى هزائم كثيرة إلا أنه فى النهاية تم القضاء على هــذه الثورات بشتى أساليب البطش والتنكيل بواسطة القائد الاسبانى دون خوان دى أوستريا(٦٤) .

وبرغم تدخــل الكثير من الأشراف والنبلاء الأسبان الذين خشــوا على مصالحهم وضياعهم ومزارعهم من الخراب حيث كان كثير من المسلمين يعملون إلا أن مساعيهم ذهبت هبــاء لدى الملك الذى أصر نتيجة لتدخــل

---

(٦٣) عنــان : نهــاية الأندلس ص ٣٥٢ .
(٦٤) الإســلام فى اســبانيا ص ١٧٦ .

رجال الكنيسة المتعصبين على تطبيق المراسيم واصدر اوامره إلى ديوان التحقيق لتنفيذ ذلك(٦٥) .

كانت السلطات الاسبانية والكنيسة الكاثوليكية تنتظر بعد كل هذه المراسيم والاجراءات الصارمة ، ووسائل التعذيب والتنكيل التى اتبعها ديوان التحقيق أن يتحول المسلمون إلى مسيحين مخلصين ، ولكن أنى لهم ذلك فعملية التنصير كانت قسرية منذ البداية ، والعقائد لا تموت فى نفوس معتنقيها بسهولة خاصة إذا ما وقع عليهم الاضطهاد ، بل إن المخلصين لعقائدهم يزدادون بها تمسكا كلما زاد الاضطهاد عليهم(٦٦) .

ولذلك كان المسلمون رغم كل الوسائل المتبعة من قبل السلطات والكنيسة يمارسون شعائرهم الدينية سرا ، ويقيمون صلاتهم ، ويقومون بصنع الملابس التقليدية ، وينظمون حفلات مصارعة الثيران ، وبرع منهم الكثير فى ذلك ، ويمارسون فى الخفاء خلاف ما يظهرونه علانية ، ويعرف الواحد منهم باسمين اسم مسيحى بين الاسبان واسم إسلامى بين إخوانه . وبالرغم من أن الكنيسة كانت تفرض الغرامات الباهظة على كل من لا يحضر منهم للصلاة فى الكنيسة وقد تصل العقوبة إلى حد السجن إلا ان ذلك لم يرغمهم على دخول الكنائس إلا القليل منهم

---

(٦٥) نهاية الأندلس ص ٣٥٣ .

(٦٦) عن ديوان التحقيق أو محاكم التفتيش ودورها فى القضاء على المسلمين فى الأندلس انظر نهاية الأندلس ص ٣٢٨ وبعدها والأندلسيون المواركة ص ٢٣٢ وبعدها . د. على مظهر : محاكم التفتيش ، عنان : ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى .

من الضعفاء والفقراء ، ولذلك فإن الأسبان كانوا واهمين فى أعتناق الموريسكين للمسيحية فالجميع كان يعرف انهم نصروا ولم يتنصروا(٦٧) .

فى عهد الملك فيليب الثانى :

وقد استمرت المراسيم بعد ذلك ولم تتوقف ففى اول يناير سنة ١٥٦٧ م اصدر الملك فيليب الثانى مرسوما علق فى اعظم الميادين بالعاصمة مجدريط (مدريد) (ميدان البنود) والميادين الأخرى يقضى بمنع استخدام اللغة العربية منعا باتا ، ويمهل الموريسكين ثلاث سنوات لإتقان الاسبانية ، ومنعهم من استخدام الحمامات بسبب الاعتقاد بأنهم يكثرون من الاستحمام لأنه يغنيهم عن الوضوء .

وفرض المرسوم وجود قابلة مسيحية عند ولادة اطفال المسلمين المتنصرين ، واجبرهم على فتح ابوابهم وعدم غلقها حتى تستطيع عيون السلطات والكنيسة مراقبة ما يحدث فى بيوتهم ، كما حظر عليهم ارتداء الملابس التقليدية والوقوف باتجاه القبلة ، والزواج باكثر من واحدة ، واستخدام الحناء ، ومنعهم من اتخاذ الكنائس كملاجىء لهم خلافا لغيرهم من المسيحين ، وان تجرى مراسم الزواج والولادة لديهم وفق الطريقة الاسبانية ، وكذلك مراسم الدفن بما فى ذلك الاعتراف الاخير الذى يسبق الوفاة .

ولذلك كان المسلمون المتنصرون يلجأون إلى اخفاء اخبار مرضاهم حتى لا يحضر الكاهن المسيحى فيدفن المتوفى نصرانيا ، وإذا تزوج

---

(٦٧) نهاية الاندلس ص ٣٤٢ ، اندلسيات ص ١٥٧ — ١٥٨ .

احـــدهم وفق الطريقة المسيحية فإنهم كانوا يقيمون لـــه احتفـــالا سريا لتزويجـــه مرة أخرى على الطريقة الإسلامية ، وكانوا يستخدمون العربية فيما بينهم بعيدا عن عيـــون ممثلى السلطة والكنيسة . غير أنهم بصدور هـــذا المرسوم ـــ الذى ينص على فتح ابوابهم وعـــدم غلقها ـــ اصـــبح من الصعب عليهم ان يستمروا فى إخفاء كل افعالهم وتحركاتهم عن أعـــين السلطات التى زادت من تشديد المراقبة عليهم .

واصـــبح الأمر ينـــذر بالانفجـــــار بعـــد أن فشلت كل محاولاتهم لاستصدار عفـــو عام عنهم ، ورفع الرقابة الصادرة عليهم . وفى الخامس عشر من ابريل سنة ١٥٦٨ م اندلعت شرارة الثـــورة الأندلسية الكبرى فى جبل البشرات ، واخذت تنتقل من مكان إلى آخر ، وظلت مشتعلة نحو ثلاث سنوات حتى قضى عليهـــا تحـــت شـــعار دون خـــوان (لا رحمة ولا هـــوادة) فذبح الرجال والنساء والأطفال ، وتحـــولت قرى البشرات إلى ما يشبه المسلخ البشرى ، وقـــدر عـــدد القتلى فيها بنحو عشرين ألفا عـــدا من أسر أو نفى وكان مصير الكثيرين الإعـــدام ، وكان القضاء على هـــذه الثورة بمثابة حرب إبادة للبقية الباقية من المسلمين فى الأندلس حتى لا تقـــوم لهم بعـــدها قائمة(٦٨) .

ويعترف بعض المستشرقين والمؤرخـــين المسيحين بهـــذه القســـوة وبدينها فيقول لين بول : « ثم اخيرا إخضاع المواركة ولكن على حساب اسبانيا المسيحية وسمعتها ومستقبلها » .

---

(٦٨) انظر : الاندلســـيون المواركـــة ص ١٤٧ ـــ ١٦٥ ، أندلسيات ص ١٦٠ ـــ ١٦١ .

ويقول المؤرخ الاسبانى بريسكوت : « وكانت غرناطة فى هــذه الفترة مسرحا للاعــدامات شبه اليومية بالخــدمة فى القواديس او الشنق او بنهاية أكثر ارهــابا عن طريق تقطيع اجسادهم بكماشات تحمى حتى يصــير لونهــا كالجمر(٦٩) .

وفى الثالث والعشرين من يونيو سنة ١٥٦٩ م اصــدر فيليب الثانى مرسوما بنفى جميع ســكان غرناطة من المسلمين بنـــاء على طلب دون خــوان رئيس المجلس العسكرى وبدرودى ديثــا رئيس المحكمة العليــا خــوفا من ثورتهم مرة اخرى ، وطلب من جميع الذكــور الذين تتراوح اعمــارهم بين العاشرة والستين التجمع فى الكنائس القريبة من بيوتهم ، وخشى المسلمون من ذلك ــ خاصة وقــد ذبح اكثر من مائة منهم قبــل ذلك فى ســجن المدينة ــ فذهب وفــد منهم لمقــابلة رئيس المجلس العسكرى فطمأنهم كذبا إلى أن الهــدف من ذلك هــو إحصاء عــددهم ، وحــذرهم من عاقبة التخلف ، ولم يجــد مسلمو غرناطة امامهم مفــرا من تنفيذ ذلك ــ رغم أن الشكوك كانت تســاور الكثيرين منهم ــ خشية من العقوبات الصارمة فتجمعوا فى الكنائس ، واغلقت عليهم الأبواب تحت حراسة الجنود الأســبان . وفى صبيحة اليــوم التــالى أخرجــوا فى صفوف طويلة وهم لا يدرون شيئا عمــا ينتظرهم ، وسيقوا إلى المستشفى الملكى حيث قام دون خــوان بالإشراف على فرزهم وتقسيمهم إلى مجموعات واستبعد منهم نحــو الفين من العلماء والمهرة من الصناع والزراع ، وحدد لكل مجموعة جهــة معينة تنفى إليهــا .

---

(٦٩) الأندلسيون المواركة ص ١٦٥ .

وتتفاوت التقديرات بالنسبة لعددهم وان كان بعضها يحددهم بنحو خمسة وثلاثين ألفا ، وتم تنفيذ أوامر الإبعاد والطرد بسرعة بالغة دون توفير أقل الضروريات لهم من طعام وماء حتى مات الكثير منهم قبل الوصول إلى المنفى ، فضلا عمن قتله الجنود . أما مصير الأطفال دون العاشرة ومصير النساء فلم يكن أحسن حالا . فقد انتزع الأطفال من أحضان أمهاتهم ، ووزعوا على الكنائس في غرناطة وغيرها من المناطق حتى يتربوا فيها وينشأوا على النصرانية . ويبدو أن معظم النساء قد بقين في غرناطة للخدمة في بيوت الأسبان ، كما استرق عدد منهن ، والتحق عدد منهن بأزواجهن في المنفى(٧٠) . ولم يقنع فيليب الثاني بذلك الموسوم فأصدر مرسوما آخر في سنة ١٥٧٠ م يقضي بترحيل جميع من بقى من المسلمين في مملكة غرناطة بلا استثناء ومصادرة جميع ممتلكاتهم . ويصف لين بول ما آل اليه حال المسلمين بعد الثورة الأندلسية الكبرى فيقول : « كان السبي والنفي المصير الذي آل إليه من بقي حيا بعد الثورة ، أولئك الذين أسروا أصبحوا عبيدا وسيق الباقون إلى المنفى تحت حراسة الجنود ، وكثير من المنفيين التعساء ماتوا في الطريق ، وتمكن آخرون من الوصول إلى أفريقية حيث عانوا من الفاقة ، ولم يجدوا أرضا يزرعونها ، وبعضهم وصل إلى فرنسا فقوبل بشعور شديد »(٧١) .

وفي سنة ١٥٧٢ م أصدر فيليب الثاني مرسوما جديدا للقضاء على اللغة العربية يحرم على المسلمين المتنصرين التخاطب بالعبرية

---

(٧٠) الأندلسيون المواركة ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(٧١) نقلا عن المرجع السابق ص ١٦٨ .

او الكتابة بها ، وجعل عقوبة من يخالف ذلك للمرة الأولى السجن مع التكبيل بالحديد لمدة ثلاثين يوما ، وضعف هذه المدة لمن يخالف للمرة الثانية ، والخدمة اربع سنوات فى القواديس مع الجلد مائة جلدة لمن يخالف للمرة الثالثة ، وجاء فى المرسوم أيضا ان الذى يعثر عنده على وثيقة او صفحات مكتوبة بالعربية يعاقب بالخدمة والجلد ، والغى هذا المرسوم اية صفة قانونية او رسمية لأية وثيقة او صك مكتوب بالعربية ، وجعل عقوبة المسؤولين عن إصدار هذا الجلد مائتى جلدة والخدمة ست سنوات سخرة فى القواديس .

كما شدد هذا المرسوم ايضا العقوبة على المسلمين الذين يتركون المناطق السكنية المحددة لهم بعد نفيهم فإذا قبض على واحد منهم يتراوح عمره ما بين العاشرة والسابعة عشرة على بعد عشرة فراسخ(٧٢) من غرناطة — حوالى خمسة وخمسين ونصف كم — حكم عليه بان يكونه عبدا يعمل فى القواديس طيلة حياته ، وإن كانت سنة اكثر من ذلك حكم عليه بالإعدام ، واجبر المرسوم المسلمين المنصرين على إبلاغ السلطات إذا هرب واحد منهم ، وإذا تخلفت أسرته عن الإبلاغ فإن جميع افرادها يعاقبون بالجلد والسجن لمدة شهر ، وكانت السلطات الاسبانية إذا هرب واحد منهم خصصت الجوائز القيمة لمن يدل عليهم أو يمسك به ، كما كانت تسعى بكل طاقاتها لمنع اختلاط المسلمين المنصرين فى غرناطة بإخوانهم فى اى مناطق اخرى خوفا من الثورة (٧٣) .

---

(٧٢) الفرسخ ٥٥٤١ م اى حوالى ٥ ½ كم ، والميل ١٧٤٨ م اى حوالى ١ ٣/٤ كم .

(٧٣) الأندلسيون المواركة ص ١٦٦ . القواديس : جمع قادوس وهو ما يستخدم فى مطاحن الغلال ومعاصر الزيت .

نتائج وآثار هـذه المراسيم :

وقـد كان من نتائج تطبيق كل هـذه المراسيم الجائرة ــ بحـق المسلمين ــ بمختلف السبل والوسـائل ان تم تنصير اعـداد كثيرة منهم تحت وطـأة الاحكام الرهيبة التى كانت تقـوم بها السلطات ومحـاكم التفتيش ويشرف على تنفيذها رجال الكنيسة المتعصبون .

فكان المسلمون يضطرون إلى الدخول فى النصرانية ولو ظاهـرا للهرب من هـذا البطش والتنكيل ، ومن الويلات التى تنتظر كل متمسـك بإسلامه ، وازدادت تبعا لذلك سرية ممارسة الشعائر الإسلامية أكثر واكثر حتى غـدا الواحـد منهم يحـذر اشد الحـذر ويستخفى بعبادته حتى عن ابنائه الذين كانـوا يؤخـذون قسرا فيربون فى ظـل الكنيسة على المسيحية ، ثم يعـودون إلى اسرهم ليكونوا عيـونا عليها لصالح الكنيسة ومحاكم التفتيش التى كانت محارقهـا تلتهم الكثيرين منهم لأقـل الشبه والوشايات(٧٤) . كما كان من نتـائج هـذه المراسيم ايضـا أن تمت مصادرات واسعة للممتلكات الخاصـة بالمسلمين لصـالح الأسبان الذين استقدموا من مختلف أنحـاء شـبه الجزيرة الأيبرية واسكنوا فى اماكن المسلمين ، ولصالح الكنائس والأديرة والكاتدرائيات .

كما نتج عنها ايضا تقلص الأزياء العربية ، وانتشار الأزياء الاسبانية بينهم وكانت محاكم التفتيش تجبر من يتهم بالهـرطقة الخفيفة على ارتداء ثوب اصفر طول النهار ــ اطلق عليه ثوب العار ــ عددا من السنين(٧٥) . وازدادت الزيجات بينهم وبين الاسبان على الطريقة المسيحية وإن حاول البعض إعادة زواجـه سرا على الطريقة الإسلامية .

---

(٧٤) اوراق اندلسية ص ١٥٣ ، الأندلسيون المواركة ص ٢٣٢ وما بعدها.
(٧٥) الاندلسيون المواركة ص ٢٣٣ هامش ١ .

وكان لكثرة الزواج بين المدجنين والموريسكين وبين النصارى آثارها الخطيرة من الناحية الاجتماعية . حيث أدت إلى نشأة جيل جديد مولد من أمهات مسيحيات أو آباء مسيحيين فقد عصبيته العربية والإسلامية ونشأ على المسيحية والتقاليد الاسبانية(٧٦) .

كما أدت هذه المراسيم إلى مزيد من ضعف المسلمين نتيجة حظر السلاح عليهم — كما تفعل دول أوربا وامريكا اليوم بالنسبة لمسلمى البوسنة وغيرها — مما أدى إلى عدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم فضلا عن الثورة ، وإن ظل بعضهم يحتفظ ببعض الأسلحة لديه بسرية تامة ، كما ألغى نظام الميراث الإسلامى ولم يعد معمولا به وحل محله النظام الأسبانى ، وبدأت اللغة العربية فى الاضمحلال وحلت محلها اللغة القشتالية مما أدى بالموريسكين إلى استخدام لغة خاصة بهم تسمى (الخميادو) وهى كتابة اللغة الرومانية القشتالية بحروف عربية وهى تحريف أسبانى لكلمة الأعجمية **Aljamiads** وظلوا يستعملونها حتى تم طردهم من اسبانيا نهائيا وقد عثر بعض العلماء الأسبان على مجموعة من مخطوطاتها فى أوائل القرن الماضى(٧٧) .

---

(٧٦) عنان : نهاية الأندلس ١٩٩ ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٢٥ .
(٧٧) الإسلام فى أسبانيا ص ١٧٣ ، د. الحجى : التاريخ الأندلس ص ٥٣٣ البتنونى : رحلة الأندلس ص ١٤٠ ، عنان : نهاية الأندلس ص ٤٩٥ ، اندلسيات ص ١٦٢ ، ليفى بروفنسال : أدب الأندلس وتاريخها ص ٦٣ — ٦٤ .
وقد عثرت السلطات الأسبانية على مخطوط بهذه اللغة فيه فقرات بالعربية تتضمن خطبا وأناشيد دينية وقصصا ومواعظ كانت مخبأة فى تجويف إحد جدران بلدة أجريدا وهى محفوظة الآن بمكتبة الاسكوريال برقم ١٨٨٠ (الأندلسيون المواركة ص ١٧٦ هامش ١) ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٤٣ .

ويصف المؤرخ الأسبانى بريسكوت هـــذه المراسيم الجائرة التى صـــدرت بحـــق المسلمين المنصرين فى هـــذه الفترة القاســـية فيقـــول « من العسير أن يعثر المرء فى صفحات التاريخ على مثال أوضح للاضطهاد تعرض لـــه شعب مقهـــور من ذلك المتمثل فى القوانين التى صـــــدرت فى تلك الحقبة بحـــق الموريسكيين »(٧٨) .

طرد المسلمين من أسبانيا نهائيا فى عهـــد فيليب الثالث :

تصور كثير من الأسبان أن نفى الأندلسيين المنصرين سيكون انتصارا عظيما يعيـــد لهم الشعور بالعظمة والفخـــر ويرفـــع من معنوياتهم التى تأثرت كثيرا للهزائم التى منيت بهـــا أسبانيا (قشتالة) فى حروبهـــــا الأوربية ، ونتيجـــة الكثير من الأزمـــات السياسية والاقتصادية شـــبه المســـتمرة(٧٩) .

وعلى الرغم من كل تلك المراسيم التى صـــدرت منذ عهـــد فرديناند وإيزابيلا وحتى عهـــد فيليب الثانى إلا أنه لم يتقرر طرد الأندلسيين جميعا من أسبانيا إلا فى عهـــد فيليب الثالث فى سنة ١٦٠٩ م بعـــد أن أشـــار عليـــه بذلك دوق دى ليرما رئيس الحـــكومة والقس خـــوان دى ريبرا الكاثوليكيين المتعصبين ، حيث زينـــا لـــــه أن وحـــدة أسبانيا الدينية والسياسية لن تتم إلا بطرد هؤلاء الأندلسيين من أسبانيا نهائيا لأنهم مهمـــا اظهروا المسيحية ، وذهبوا إلى الكنائس فإنهم لن يخلصوا لهـــا وسيظلون شـــوكة فى ظهر أسبانيا ، واستجاب ذلك الملك الضعيف لهمـــا ، وآثر

---

(٧٨) نقـــلا عن الأندلسين المواركة ص ١٦٧ .

(٧٩) الأندلسيون المواركة ص ١٨١ .

التضحية بمن بقى من الموريسكيين الذين كانوا يمدون البلاد بمدد لا ينقطع فى شتى المجالات . وأيده فى ذلك الغالبيـــة من الأسبان المتصبين ، وإن ارتفعت أصـــوات من بين الأسبان وخاصة من فئـــة الأشراف والنبلاء تعـــارض ذلك ، وتنتقـــد هـــذا المرســـوم (مرســـوم النفى الجماعى) والاجراءات التى اتخـــذت لتنفيذه ، وتدين القسوه البالغـــة التى ترد إبعاد شـــعب باكمله عن موطنه الذى عاش فيه قرونا عـــدة(٨٠) .

وتقرر إن تبدا الحكومة بنـــفى اندلسين مملكة بلنسية حيث كانوا يشكلون تجمعـــا كبيرا لان رئيس اساقفتها كان خـــوآن دى ريبرا المتعصب الذى لقب (بمضطهد الموارکة)(٨١) . وبدا تنفيذ مرسوم النفى بالرغـــم من تدخـــل بعض النبلاء مثل دوق غندة Clanda وغيره لدى الملك لترك البعض للعمل فى المزارع والضياع . وبعـــد مداولات طويلة سمح لستة فى المـــائة فقط بالبقاء خشية على مصالح النبلاء والكنيسة التى كان لهـــا مزارع وحقـــول يعمل بهـــا الأندلسيون ، ونصت الاستثناءات على أن يكون الباقون من الذين لم يعـــرف عنهم ممارسة اية شـــعائر او عادات إسلامية او عربية خـــلال السنتين المـــاضيتين ، وجميع الأطفال الذين لم يتجاوزا الرابعـــة من عمـــرهم ، وكذلك من هم دون السادسة وكان ابوهم مسيحيا اسبانيا والسماح لامهاتهم بالبقاء ، اما إذا كان والدهم اندلسيا فإنهم يرحلون معه إلا إذا كانت امهم مسيحية إسبانية اصـــيلة فيمكنهم البقاء معها دون والدهم . وكانت عقـــوبة مخالفة ذلك العمـــل فى القواديس لمدة ست سنوات سخرة(٨٢) .

---

(٨٠) الإســـلام فى اسبانيا ص ١٧٦ . ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٦ .
(٨١) الاندلسيون الموارکة ص ١٨٤ .
(٨٢) الاندلسيون الموارکة ص ١٨٥ .

وأخــذت السفن الاسبانية فى نقــل المنفيين إلى الساحل المغربى على دفعات من بلنسية وقطالونيا ، ومرســية ، وقشتالة ، وغرناطــة وغــيرها .

واستمرت عمليــة الطرد والإبعاد نحــو ست سنوات ، استطاع خلالها بعض الأندلسيين المواركة الفرار والالتجاء إلى الجبال حتى لا يتم إخراجهم . غير أن الجنود الاسبان قاموا بمطاردة هؤلاء مطاردات عنيفــة ادت إلى قتل الكثير من الرجال والنساء والأطفال وسبى الكثيرين أيضا . وتذكر بعض المصادر أن هــؤلاء كانوا ما بين ١٥ ــ ٢٠ الف ...(٨٣) كان نفى الأندلسيين المواركة عملية شاقة وعسيرة لم تنته إلا فى سنة ١٦١٥ م ولا يعرف على وجــه الدقة عــدد المنفيين او الباقيين . فالبعض يقــدره بتسعمائة ألف وهو عــدد ضئيل والبعض يقــدر بالمــلايين . ويذكر لين بول أنهم حــوالى نصف مليون وهناك تقــديرات أخرى تتراوح ما بين المليــون والثلاثة ملايين والخمسة ملايين(٨٤) . غير أنه من الصعب التيقــن من العــدد الدقيق نظرا لعــدم توفر الإحصاءات الدقيقــة عن هــذه الفترة الحرجة والقاسية فى تاريخ المسلمين بالأندلس والتى كانت السلطات والحكومة الاسبانية تحاول إخفاء ما يحــدث فيها ولا تظهره .

وقــد قــدر (لين بول) عــدد الأندلسيين الذين غادروا الأندلس بحــوالى ثلاثة ملايين مسلم فى الفترة ما بين ســقوط غرناطة وحتى رحيل آخر فــوج من المنفيين من الأندلس سنة ١٦١٥ م(٨٥) .

---

(٨٣) المرجــع الســابق ص ١٨٦ .
(٨٤) د. أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسى ص ١٢ د. أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى حـ ٤ ص ٨١ ، عنان : أندلسيات ص ١٥٦ ، نهاية الأندلس ص ٤٠٢ ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٧ ــ ٣٨ .
(٨٥) الأندلسيون المواركة ص ١٩٠ .

وقــد خسرت اسبانيا بسبب التعصب وضــيق الأفق معظم هــؤلاء الذين رحــل معظمهم إلى بلاد المغرب فشاركوا فى بناء نهضتها وحضارتها بفضل خبراتهم وقــدراتهم الفنية والعلمية .

ويصور المقرى بعض ما حــدث للمسلمين فى هــذه الحقبة المريرة فيقول « ثم بعــد هــذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى أنهم احرقــوا كثيرا منهم بسبب ذلك ، ومنعــوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحــديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا ، ولم يقيض الله لهم ناصرا ، إلى أن كان إخراج النصارى لهم بهــذا العصر القــريب اعــوام سبعة عشر والف (سنة ١٠١٧ هـ) فخرجت الوف بفاس والوف اخرى بتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس »(٨٦) .

لم يكن هــذا النفى الجماعى نهاية الصــلة بين الأندلسيين وبين اسبانيا فقــد حاولت جماعات منهم العودة سرا ، وربمــا تمكن البعض من الوصــول واســتطاع الاختفــاء بين الســكان خاصــة وان اشكالهم وملامحهــم لم تكن تختلف كثيرا عنهم ، كمــا تشــكلت منهم مجمــوعات خاصة اخــذت تشن هجماتها على السفن والموانىء الأسبانية(٨٧) .

---

(٨٦) نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٢٧ — ٥٢٨ .

(٨٧) بدأت الغارات البحرية على الشــواطىء الأســبانية عقب استيلاء الأسبان على غرناطة وإكراههم المسلمين على التنصر حيث غــادر الأندلس الاف من المسلمين المجاهــدين إلى المغــرب ، واستقروا فى بعض القواعــد الساحلية مثل وهران وبجاية ، ووهبوا حياتهم للجهــاد ضــد الاســبان . .

وإذا كانت اسبانيا المسيحية قــد حاولت جاهــدة بشتى الطــرق والأساليب تنصير المدجنين واخفقت فى ذلك كثيرا فإن عمليــة الطــرد أو النفى هــذه قد أعادت إلى حظيرة الإسلام والعروبة ما يزيد على نصف مليون مسلم ظلــوا قابضين على دينهم كالجمر .

اما من بقى فى أسبانيا من الموريسكيين فقد انتهى الأمر بهم إلى التلاشى والذوبان والانصــهار فى المجتمع الاســبانى المسيحى على مدى القرون اللاحقة ، وتحول الكثيرون منهم إلى رقيق يعملون فى الخــدمة حتى قــدر البعض عــدد الذين استعبدوا منهم باكثر من ٥٠ الف شخص ، ويذكــر الرحالة الفرنسى (برونيــل) الذى زار اســبانيا فى ســنة ١٦٥٥ م أن المتجول فى اندلوثيا (الاندلس الصغرى) يكاد لا رى قدما إلا من العبيد معظمهم من الأندلسيين السود .

ومن المنطقى ان يكون هناك الكثير منهم فى المستعمرات الاســبانية الجــديدة فيما وراء البحار فقــد ذكر (بارى) أن الخــوف من محــاكم التفتيش قــد دفع الكثيرين من الأندلسيين الموريسكيين واليهــود ليكونوا من أوائل المهاجرين إلى امريكا ، هــذا بالإضافة إلى الهــدايا من الجوارى

وقــد ازدادت هــذه الغارات ضراوة بانضمام بعض البحارة الاتراك وعلى راسهم الأخــوان الشهيران عروج وخير الدين اللذان يعرفان فى الروايات الأوربية باسم باربا روسا أو ذو اللحيــة الحمراء . وقــد نشر فى الجزائر سنة ١٩٣٤ م كتاب معرب عن اصــل تركى بعنــوان (غزوات عروج وخير الدين) يوضــح ما قام به هــذان الأخــوان من غارات على الشواطىء الأسبانية (انظر عنان : نهاية الإندلس ص ٣٨٤ ــ ٣٨٥) .

والعبيد التى كانت تقـدم الملوك والبابوات للعمل كحراس او خـــدم أو وصيفات أو مغنيات إلى غير ذلك من مهن كان يجيدها هؤلاء(٨٨) .

كان من المتوقع بعـد أن طردت أسبانيا جـل المسلمين فيهـــا أن تسدل الستار على هـذه المـأساة الدامية فتترك هـؤلاء الذين بقوا فيها يعيشون بسلام إلا انها استمرت فى مسلسل الاضطهاد حتى نهـاية القرن الثامن عشر ، وكانت المنازعات والصراعات شبه المستمرة بينهـا وبين بلاد المغرب من الأسباب التى أدت إلى ذلك .

وهكذا رحل المسلمون عن أسبانيا نهائيا ولكن آثارهم التى تركوها خـلال ثمـانية قرون لا تزال شـاهدة على عظمة الإسـلام وحضارته إلى اليوم بعـد أن عادت اسبانيا إلى حظيرة المسيحية مرة أخرى .

---

(٨٨) الأندلسيون المواركة ص ١٩٢ ـــ ١٩٣ ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٢ ـــ ٣٣ . وقـد عثر بعض الباحثين فى الأرشـيف الوطنى المكسيك على وثيقة من وثائق محاكم تعود لعام ١٥٨٤م وفيهـا بيـان من الكنيسة الكاثوليكية جاء فيـه : « عليـكم الإبلاغ عمن تعرفون من أشخاص ، أو تسمعون عنهم ممن يقول إن طائفة محمـد أخيـار ، وأنهم هم الذين سيدخلون الجنـة ، وأن المسيح عيسى ليس هو الله بل نبيـه ، وأنه لم تلده سيدتنا وهى عذراء ، أو قاموا ببعض شـعائر طائفة محمد ، أو راعوها فى حياتهم كاتخاذ الجمعة يوم عيـد ، وأكل اللحم خـلاله أو خـلال الأيام الأخرى التى تحرم فيها الكنيسة اكل اللحوم ، أو ممن يقومون بذبح الطيور والحيوانات قائلين باسم الله ، أو ممن يختنون ابناءهم ويطلقون عليهم الأسـماء العربية الإسلامية ، أو ممن ينطقون بعبـارة لا إله إلا الله محمد رسول الله . . . الخ » .

(انظر ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٣ـ ٣٤) .

اثر المدجنين فى الأندلس (اسـبانيا)

ظـل تراث الإسلام وحضارته باقيين فى اسبانيا عن طريق هؤلاء المسلمين المدجنين لم يمحه تعاقب الأجيـال ولا مرور السنين حتى وقتنـا الحـاضر .

واول ما يلاحظ من آثـار للمدجنين فى الحيـاة الأسـبانية أثرهـم فى الفن والعمارة . ولقد درج الباحثون على التفريق بين الفن المعمـارى للمستعربين وهـو الذى ولـد فى البيئة الإسلامية وتأثر بها ، وبين فن المدجنين الذى هـو من صنع المسلمين فى البيئة المسيحية . وقـد كان ملوك اسـبانيا من المسيحيين يدركون مبلغ براعـة الصـناع والبنائين والمسلمين فكانوا يستخدمونهم فى بنـاء الكنـائس والقصـور وغيرها من المبانى ، فعندما أراد الفونسو الثالث تحصين مدينة (ساموره) طلب عرفاء أهـل طايطلة المسلمين لذلك ، كما استعان فرناندو الأول بأهـل ليجـو فى إعادة بناء الكنائس التى دمرت فى اثنـاء غزوات المنصور ابن أبى عـامر .

وبعـد سقوط قرطبة فى أيدى الاسبان سنة ١٢٣٦ م لم تجـد السلطات الحاكمة سوى المدجنين لكى تعهـد إليهم بالأعمـال المعمارية والفنية ، فكان منهم النجارون والبناءون وغيرهم من أرباب الحرف الأخرى الذين يعملون فى الكاتدرائية الكبرى بها مرتين فى العام . ويذكر ان الملك (ألفونسو الحكيم) اصـدر منشورا سنة ١٢٨٠ م اشاد فيـه باعمالهم وتعهد فيه بالا يتعرض لهم أحـد بأذى(٨٩) .

---

(٨٩) د. لطفى عبد البديع : الإسـلام فى أسبانيا ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .
د. صلاح فضل : ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٥ ـ ٣٦ .

وإلى العرفاء من المدجنين ترجـــع بعض الآثار المسيحية ذات الطابع العربى مثل عقـــد دير ساهاجون ، والعقـــد الذى فى مصلى سان بدرو ، والعناصر المعمارية فى كنيسة سانتيا جـــودل آرابال(٩٠) .

وهناك عـــدد كبير من الكنائس فى ليون وقشتالة وقطالونيا تحتوى على الكثير من التفاصيل المعمارية الموجودة فى جامع قرطبة ، وتتضـــح العمارة الدجنية بصـــفة خاصـــة فى الأندلس الصـــغرى (غرناطـــة) أو أندلوثيا الآن ، وفى مناطق الساحل الشرقى وفى طليطلة التى تشتمل على كثير من الأبنية المشيدة على هـــذا الطراز المدجن مثل مسجد المدجنين فيها الـــذى أنشىء سنة ١٣٢٦ م وكنيسة القـــديس ســـان خـــوان . وفى طيرويل (تيرويل) التى تحمل كثيراً من ملامح هذا الفن فى أبراجها وكنائسها مثل برج سان بدور(٩١) .

بل بلغ من شغف هـــؤلاء الملوك المسيحيين لهـــذا الطراز أنهم كانوا يتركون قصـــورهم المشيدة على الطراز القـــوطى أو الرومانى أو غيرهما ليعيشـــوا فى أبنية على الطراز المدجـــن حتى أنهم أدخلوه فى مقابرهم . بل إن أشـــد المتعصبين الأسبان الذين حملوا راية اضطهاد الأندلسيين المسلمين لم يجـــدوا غضاضة فى الاستفادة من فنـــونهم وخبراتهم ومنهم الكاردينارل زمنيز الذى يقول : « إنهم يفتقدون إلى دنينا ونحن نفتقـــد إلى فنـــونهم »(٩٢) .

---

(٩٠) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ١١٠ .

(٩١) عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٢٨٩ . د. سيد سالم : مسجد المدجنين فى طليطلة ص ٧٨ وبعـــدها .
الورفلى : أوراق أندلسية ص ٦٥ — ٦٦ .

(٩٢) الأندلسيون المواركة ص ٢٩٠ ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٩ .

وإلى جانب هـذا الأثر المعمـارى والفنى الذى تركه المدجنـون فى اسبانيا فقـد كان لهم أثرهم البارز فى الحيـاة الاقتصادية . حيث شكلوا عاملا مهمـا فى حياة أسبانيا واقتصادها القـومى ، وفى ازدهار زراعتها وتجارتها وصناعاتها . فقـد كانوا عنصرا نشطا دءوبا عمل فى المجالات المختلفة . وقامت على أكتافه الحياة الاقتصادية ولذلك فإنه عندما اتخذ الأسبان قراراتهم بالتنصير والنفى فإن ذلك كان ضربة قاصمة وجهوها دون روية أو تبصر لاقتصادهم القومى باعتراف الكثير من كتابهم ومؤرخيهم الواقعـيين وكثير من المستشرقين الموضـوعيين(٩٣) حيث خربت الأراضى الزراعيـة والضـياع الكبيرة ، وكسدت التجارة ، وركدت الحـرف والصناعات ، وغاضت الفنـون البديعـة التى كانت لهـؤلاء المسلمين المدجنين ، وتناقص عـدد السكان ممـا أدى إلى تضاؤل موارد الدولة حيث كان هؤلاء المدجنون من أوفر العناصر فى المجتمع تأدية للضرائب . وعم الفقر والخراب كثيراً من المدن ، وخيم على أسبانيا كلهـا جـو من الركـود والاضمحلال(٩٤) .

لقـد كان هؤلاء المدجنون من أبرع العناصر وانشطها فى المجتمع الأندلسى (الأسبانى) وكانوا يتفوقون فى الكثير من العلوم والفنون والمهن فكان منهم الأطباء والمهندسين والبنائين وغيرهم ، ولهم الفضل فى إدخال الكثير من المحاصيل الزراعية إلى اسبانيا مثل القطـن والقصب والأرز

---

٩٣) انظر عنان : نهاية الأندلس ص ٤١٢ وبعدها .
٩٤) عنان : المرجع السابق ص ٦٣ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٥٣٤ .

والحرير والبرتقال والتين واللوز وغير ذلك ، كما برعوا فى هندسة الرى ولا زالت مشاريع الرى التى انشاوها ـــ ولا سيما فى المناطـــق الشرقية والشمالية الشرقية من أسبانيا ـــ تشهد ببراعتهم وعبقريتهم فى هـــذا المجال . وإليهم يعود الفضل فى تطوير الكثير من الصناعات التى كانت دول أوربا تحـــذو حـــذوها(٩٥) .

لقـــد كان المدجنون عنصرا مهما فى المجتمع الاسبانى حيث اعتمد عليهم الاسبان وخاصـــة الأشراف والنبلاء بل وحتى بعض رجال الكنيســـة الكاثوليكية فى إقطاعاتهم واراضيهم بل لا نبالغ إذا قلنا وفى شتى منـــاحى الحيـــاة العـــامة . ولقـــد وصف احـــد الرحالة الفرنسيين الاســـبان فى القرن السادس عشر بقوله (إن أذهانهم مملوءة بأحـــلام العظمة وهم يفضلون البؤس او خـــدمة احـــد النبلاء على الاشتغال فى بعض الحرف والصناعات » ومن هنا شكل المدجنون عنصرا فاعلا واقلية لهـــا وزنها فى المجتمع الأسبانى . وخاصة فى الناحية المعمارية والاقتصادية(٩٦) .

اما فى الناحية الاجتماعية فقـــد كان هنـــــاك تأثير ايضا للمدجنين فى المجتمـــع الأســـبانى حيث كانت الحضـــارة العـــربية هى المتفـــوقة فى الأندلس ، ولذلك قلدها الكثيرون من الأسبان ملوكا وعامة فى المـــآكل والملبس والعملة والسلاح والموسيقى والغناء والرقص والمبارزة بالســـيف واللعب بالعصى إلى غير ذلك ، فقـــد كان الملك القشتالى إنريكو الرابع (١٤٥٤ ـــ ١٤٧٤ م) يرتدى الملابس الأندلسية المزركشة مثـــــل ملوك

---

(٩٥) الأندلســـيون المواركة ص ٢٥٤ ، ملحمـــة المغـــازى الموريسكية ص ٣٥ ـــ ٣٦ .

(٩٦) عنان : نهاية الأندلس ص ٤١٣ .

الشمال المسيحيين ، واحتفظ بحرس ملكى اندلسى فى بلاطه ، كما أن الملك بيدرو الثانى (دون بطرة ١٣٥٠ – ١٣٦٨ م) اتخذ له حرسا من المدجنين . كمـــا أن الملك الأرغونى الفونسو الخامس (١٤١٦ – ١٤٥٨ م) كان يصطحب معـــه فى رحلاته إلى إيطـــاليا بعض المغنين والراقصين من الاندلسيين . وقد تأثر الكثيرون من الأسبان بالعادات والتقاليد الأندلسية فكانوا يختنون أولادهم ويتخـذون الجوارى ، كما انتشرت عـــادة ارتداء الحجاب بين الكثير من الأسبانيات إلى حـــد جعل الملك فيليب الثانى يطلب إلى مجلس قشتالة التصرف فى هـــذا الأمر بغية منعـــه . واصـــدر سنة ١٥٩٠ م أمرا بمنع الحجاب وقرر عقـــوبات شـــديدة لمن يخالف ذلك ولكن دون جـــدوى .

وجاء فيليب الرابع فاصـــدر سنة ١٦٣٩ م مرسوما بحظره ولكنـــه لم يحقق نجاحا يذكر أيضا ممـــا اضطر بعض الكتاب الأسبان إلى وضـــع رســـائل وكتب سعيا وراء إزالة هـــذا الأثر الأندلسى ومن هذه الرسائل رسالة (الحجاب : قـــديمه وجـــديده على وجـــوه النســـــاء حشـــمته وخطـــره)(٩٦) .

لقـــد ضرب المدجنون بسهم وافر فى الحيـــاة العامة وفى أوجـــه النشاط المختلفة ، وكان ما اتسموا به من صبر وجلد ونشاط مثارا لإعجاب معظم الأسبان ، كما كانت سجاياهم التى ورثوها عن آبائهم واجدادهم درعا واقيـــا لهم من الفساد والانحلال الذى تردت فيـــــه بعض الطـــوائف فى المجتمع الأسبانى .

---

(٩٦) د. احمد بدر : دراسات فى تاريخ الأندلس وحضارتها ص ٢٠٠ – ٢٠٧ ، الاندلسيون المواركة ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .
عنان : أندلسيات ص ١٧٧ ، نهاية الأندلس ص ١٧٣ .

ولقد انتقلت منهم معانى الحسب والبطولة والكرم وغيرها من الصفات إلى الأسبان وفاض الأدب الأسبانى بالكثير من صور الغيرة وألوان الحب قبل القرن السادس عشر ، كما استهوت نساؤهم شعراء (التروبادور) فتغنوا فى اشعارهم بأسماء عربية مثل فاطمة وعائشة وثريا ، ونظموا فيهن القصائد والمقطعات الغزلية مثل الشاعر غرسية فرنندث دى خريتا الذى احب مغنية عربية وتعلق بها وهرب معها إلى غرناطة وأسلم .

كما كان للنساء المدجنات اثرهن فى المجتمع الأسبانى وقد رسم كتاب (الأرثبرت دى هيتا) صورة أخاذة للقوم وهم يغنون ويرقصون فى احتشام وحياء ولا يتحدثون إلا بالعربية(٩٧) .

غير ان بمضى الزمن اخذت العوامل الاجتماعية تحدث أثرها بين المدجنين فبالرغم من الفوارق التى كانت تفصل بينهم وبين النصارى ، إلا أن وجودهم معهم فى مجتمع واحد أدى بهم إلى الاختلاط والتزاوج منهم والتشبه بهم فى بعض الأحيان مما ساعد على اندماجهم شيئا فشيئا فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وفقدهم للكثير من مميزاتهم الجنسية والقومية واللغوية حيث أخذ الكثير منهم يتعلم القشتالية ويكتب بها إلى جانب العربية(٩٨) .

أما عن الأثر الثقافى للمدجنين فكان كبيرا ، وكما احتفظ المدجنون بتراثهم الفنى فإنهم قد احتفظوا بتراثهم العلمى والأدبى زمنا طويلا وحافظوا على عروبتهم وتقاليدهم حتى بعد أن فرض عليهم التنصير.

---

(٩٧) الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٩ — ١٧٠ ، ملحمة المغازى ص ٧٨ .
(٩٨) عنان نهاية الاندلس ص ٦٦ .

وتاريخ طليطلة وغيرها من المدن التى عاش فيها المدجنون تحت حكم الأسبان خير شاهد على ذلك بالرغم من موجات الاضطهاد ، فقد ظلت هذه المدينة بعد سقوطها فى يد ألفونسو السادس سنة ١٠٨٥ م محتفظة بطابعها العربى قرونا طويلة وبرز من بين أهلها من المسلمين المدجنين الكثيرون فى مجالات شتى رغم ما أحاط بهم من ظروف قاسية . بل إن ألفونسو السادس تأثر بالثقافة العربية عن طريق الحاشية التى اتخذها من المدجنين فقد كان له كتاب منهم يحررون الرسائل بالعربية كما تشهد بذلك مكاتبات هذه الفترة(٩٩) .

ويمكن القول اعتمادا على الوثائق التى ظهرت أنه كان ثمة طوائف كبيرة من المدجنين ظلت حتى القرن الخامس عشر تحتفظ بدينها ولغتها وتقاليدها(١٠٠) .

وممن نبغوا من المدجنين فى هذه الفترة صادق بن خلف بن بلال ابن بيبل الأنصارى الذى رحل إلى المشرق وحج ثم دخل بيت المقدس وسمع عن نصر بن إبراهيم المقدسى وكتب بخطه علما كثيرا وتوفى سنة ٤٧٠ هـ ، وأقام زمنا فى برغش ، ونشر كتبه فيها وكانت فى أيدى المسيحيين آنئذ . وهذا يدل على أنه كان فى بلاد قشتالة أناس يقبلون على الثقافة الإسلامية(١٠١) .

وقد ظلت الثقافة الإسلامية قائمة فى طليطلة طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر حتى أيام سان فرناندو وولده ، كما ظلت

---

(٩٩) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(١٠٠) عنان : نهاية الأندلس ص ٦٥ — ٦٦ .
(١٠١) الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٨ .

مزدهرة بين المدجنين من أهـل إلتيش ووادى الحجارة وطلبيرة إلى منتصف القـرن السـابع عشر .

كما كان للمدجنين اثر ثقافى فى مرسية حيث جمع الفونسو الحكيم حـوله طائفة من العلماء المسلمين والمسيحين واليهود لترجمة الكتب العربية إلى الاسبانية أو النقل عنها كما ظهر ذلك فى المدونة العـامة لتـاريخ اسبانيا وقد نقل فيها عن البكرى وغيره من المؤلفين العرب .

ويعـد القرن الرابع عشر من القرون الخصبة فى حيـاة المدجنين الثقافيـة والأدبية وتحتفظ مكتبة الأسكوريال بعـدد من المخطوطات التى كتبت فى طليطلة واشبيلية وقرطبة ووادى الحجارة وغيرها يرجع اقـدمها إلى سنة ١٢٦٤ م واحـدثها إلى سنة ١٤٦٥ م ومعظمها فى الطـب والعلوم . ومن اهمهـا كتابان احـدهما فى الطب بالعـربية والآخر فى الرياضيات لأبى عبد الله محمد الرياضى ، وقـد خالف فيه بطليموس فى بعض نظرياته . وفى هـذه الفترة نقـل دون خوان مانويل فى كتبه كثيرا من الأخبار الواردة فى الكتب العربية التى كانت موجودة فى مرسية واشبلية مثل كتاب المسهب للحجارى وكتاب المغرب لابن سعيد(١٠٢) .

وقـد كان المدجنون يكتبون بالعربية وبالاسبانية (القشتالية) كذلك حيث تعلمها الكثيرون نتيجة اختلاطهم بالأسبان وتعاملهم معهم وتزاوجهم منهم كما قلنا ، ولهم آثار كتبت باللغة القشتالية بحروف عربية — بعـد أن صـدر مرسوم سنة ١٥٦٦ م فى عهـد فيليب الثانى الذى يحـرم التحـدث بالعربية — وهى اللغـة التى تسمى بالالخميادو (الأعجمية) والتى شـاع استـعمالها سرا بين الموريسكيين بعـد ذلك ومن هـذه

---

(١٠٢) الإسلام فى اسـبانيا ص ١٧١ .

الآثار قصـة الاسكندر ، وقصيدة يوسـف ، والأنشودة التى رويت على لسان أبى عبد الله الغرناطى آخر ملوك بنى نصر وهو يبكى فيها غرناطة ونصها عربى مكتوب بحروف لاتينية(١٠٣) .

ومن مشاهير العلماء والأدباء المدجنين دون عيسى جابر الشقوبى وكان مفتيا وشيخا لجامع شقوبية وهـو مصنف مختصر السنة ، ومحمـد الشرتوسى الذى الف الموسوعة التى عرفت بقوانين المسلمين وكان مدجنا من وادى الحجارة وعمـل طبيبـا لدون دييجـو فرنادو دى مندوثا زعيم قشتالة ، ومن اشهر شعرائهم محمد ربدان الذى كان حيا فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى وهـو من إقليم اراجـون ولـه نظم كثير وقصائد قصصية وأخرى دينيـة ، وإبراهيم دى بلفاد وله مسرحية شـعرية عن معجزات الرسول ، وأشعار دينية . والواقع أن كتابة المدائح النبوية باللغة القشتالية ترجع إلى عصر مبكر فقـد كتبها المدجنون بهـذه اللغـة منذ القـرن الثـالث عشر وانتشرت بعـد ذلك بينهم فى مختلف مدن قشتالة وأراجون . ثم كتبها الموريسكيون بالألخميادو اى القشتالية العربية(١٠٤) كل هـذه المظاهر وامثالها يؤكد الاثر الذى تركه المدجنون فى الحيـاة الأسبانية فى نواحى شتى .

---

(١٠٣) أنظر عنان : نهاية الأندلس ص ٤٩٤ ــ ٤٩٥ . ظلت هـذه اللغة سرا دفينا بعـد نفى الموريسكيين من أسبانيا سنة ١٦٠٩ م حتى عثر بعض العلماء الأسبان على مجموعة من مخطوطاتها فى أوائل القرن المـاضى ويقول عنها المستشرق الأسبانى مندنيث دى بلايو (إنها هى اللغة الرومانية القشتالية تكتب بحروف عربية) ، وكان من أوائل الدارسين لهـا المستشرق الأسبانى سافدرا (عنان : نهاية الأندلس ص ٤٩٥ ، أندلسيات ص ١٦٢ ، ملحمـة المغـازى الموريسكية ص ٤٩ .

(١٠٤) محمد عنان : أندلسيات ص ١٦٣ ، الإسلام فى اسبانيا ص ١٧٣ . ملحمة المغازى الموريسكية ص ٤٦ ــ ٥٠ .

ولقـــد اعترف الكثير من المستشرقين الموضوعيين بفضـــل المسلمين على اسبانيا بل وأوربا كلها ومنهم لين بول الذى يقول : « يجب الا يخطر ببال احـــد أن العرب عاشوا فى البلاد (يقصـــد أسبانيا) وخربوها بصنوف الارهاق والظلم كما فعل قطعان المتوحشين من قبلهم ، فإن أسبانيا لم تحكم فى عهـــد من عهودها بسماحة وعـــدل وحكمة كما حكمت فى عهد العرب الفاتحـــين »(١٠٥) .

---

(١٠٥) العرب فى أسبانيا ص ٣٨ .

مصــادر البحــث ومراجعه

اولا - المصــادر الأصليــة :

١ - ابن الاثير : الكامل فى التــاريخ ج ٤ - دار صــادر بيروت سـنة ١٩٧٩ م .

٢ - ابن الخطيب : الإحاطة فى اخبار غرناطة - القــاهرة ١٩٧٣ - ١٩٧٤ م .

٣ - ابن الخطيب : كناسة الدكان بعــد أنتقــال السكان - تحقيق د. محمد شبانة دار الكاتب العربى القاهرة د.ت .

٤ - الحميرى : الروض المعطــار تحقيق د. إحسان عبــاس بيروت سنة ١٩٧٥ م .

٥ - الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية . تحقيق د. محمد شامة ط ٢ مكتبة وهبــة القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

٦ - ابن عــذارى : البيان المغرب فى اخبــار الأندلس والمغرب ج ٤ تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

٧ - ابن عــذارى : ازهار الرياض فى اخبــار عيــاض القاهرة سنة ١٩٣٩ - ١٩٤٢ م .

٨ - مؤلف مجهول : نبدذة العصر فى اخبــار ملوك بنى نصر . تحقيق الفريد بستانى . منشورات معهــد فرانكو العرائش (المغرب) سنة ١٩٤٠ م .

٩ - المقرى التلمسانى : نفــح الطيب فى غصــن الاندلس الرطيب . المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠٢ هـ .

١٠ - ياقوت الحموى : معجم البلدان ، دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩ .

ثانيا ــ المراجــع الحــديثة :

١ ــ د. إبراهيم بيضون : الدولة العربية فى اسبانيا ط ٢ دار النهضة العربية سنة ١٩٨٠ ، بيروت .

٢ ــ د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى حـ ٤ ط ٦ مكتبــة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

٣ ــ د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافــة ط ٣ القــاهرة سنة ١٩٦٧ م .

٤ ــ جــلال مظهر : مآثــر العرب على الحضــارة الأوربية ط ١ دار المعــارف القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

٥ ــ د. سعيد عاشور وآخرون : دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ط ٧ منشورات دار السلاسل الكويت سنة ١٩٨٦ م .

٦ ــ د. صلاح فضل : ملحمة المغازى الموريسكية ط ١ سنة ١٩٨٩ دار المعارف القاهرة .

٧ ــ عــادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ــ مطــابع انترناسيونال القــاهرة سنة ١٩٨٣ م .

٨ ــ د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ط ١ دار الاعتصــام القــاهرة سنة ١٩٨٣ م .

٩ ــ عبــد العاطى الورفلى : أوراق اندلسية : ط ١ منشورات جمعيــة الدعــوة الإسلامية طرابلس ليبيا سنة ١٩٨٠ م .

١٠ ــ د. عبد العزيز عتيق : الأدب العــربى فى الأندلس . النهضــة العــربية بيروت سنة ١٩٧٦ م .

١١ ــ د. على مظهر : محاكم التفتيش ط ١ مطبعة أنصار السنة المحمدية القــاهرة سنة ١٩٤٥ م .

١٢ ــ د. لطفى عبد البديع : الإســـلام فى اسبانيا ط ٢ مكتبة النهضـــة المصرية القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

١٣ ــ ليفى بروفنسال : ادب الأندلس وتاريخها . ترجمـــة د. محمـــد عبد الهادى شعيرة المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١ م .

١٤ ــ لين بول : العرب فى اسبانيا ترجمـــة على الجارم دار المعـــارف بمصر سنة ١٩٤٩ م .

١٥ ــ محمد عبد الله عنـــان : اندلسيات كتـــاب العربى رقم ٢ الكويت سنة ١٩٨٨ م .

١٦ ــ محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ط ٤ مكتبة الخانجى القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

١٧ ــ محمد لبيب البتنونى : رحـــلة الأندلس ــ ط ١ مطبعـــة كشكول بمصر سنة ١٩٢٧ م .

١٨ ــ د. محمـــود المقـــداد : تاريخ الدراسات العربية فى فرنســـا ــ سلسلة عالم المعرفة رقم ١٦٧ الكويت سنة ١٩٩٢ .

ثالثا ــ الـــدوريات :

١ ــ مجلة دراسات : تصـــدر عن الجامعة الأردنية ــ العـــدد الثانى المجلـــد الثامن سنة ١٩٨١ م .

٢ ــ مجلة عالم الفكر : تصـــدر عن وزارة الاعلام بالكويت العـــدد الأول المجلد الثانى عشر سنة ١٩٨١ م ، والعـــدد الثالث المجلد الخامس عشر سنة ١٩٨٤ م ، والعـــدد الثانى المجلد السادس عشر سنة ١٩٨٥ م ، والعـــدد الأول من المختار من عالم الفكر سنة ١٩٨٤ م .

الفهــــرس

المقـــدمة ... ٣ — ٦

حــركة الاســترداد ... ٧ — ١٢

اسباب الابقاء على المدجنين فى اسبانيا ... ١٢ — ١٥

سياسة الأسبان تجــاه المدجنين ... ١٥ — ٢١

احوال المدجنين بعد سقوط غرناطة ... ٢٢ — ٢٧

خـرق الأسبان لمعاهدة غرناطة ... ٢٧ — ٣٥

احوال المدجنين فى عهد خوانا المعتوهة ... ٣٦ — ٤٠

أحوال المدجنين فى عهد شارل الأول (شارلكان) ... ٤٠ — ٤٤

أحوال المدجنين فى عهد المـلك فيليب الثانى ... ٤٤ — ٤٩

نتائج وآثار المراسيم الجائرة ... ٤٩ — ٥١

طرد المسلمين من اسبانيا فى عهد فيليب الثالث ... ٥١ — ٥٧

اثر المدجنين فى الاندلس (اسبانيا) ... ٥٧ — ٦٦

مصــادر البحث ومراجعــه ... ٦٧ — ٦٩

الفهــرس ... ٧٠

رقم الإيداع بدار الكتب الوثائق القومية
١٩٩٣/٢٥٤٦
تحريرا فى ١٩٩٣/١٢/٣

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٥١٠٦٧٢٤

نرجوا من الله القبول

ومنكم الدعاء